القصّاص

عنوان الكتاب: القصّاص
نوع العمل: رواية
التأليف: جمال الحفني
المراجعة اللغوية:
الإخراج الفني: أكمل الصاوي
تصميم الغلاف: هشام القاضي
رقم الإيداع: 2022/14678
الترقيم الدولي: 978-977-6899-65-0
رقم الفسح: 59718220220730

المثقفون العرب للنشر والتوزيع
elmothakafon@gmail.com
+201062281356

شيرين القاضي
جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة لدار المثقفون العرب ©

كل الحقوق محفوظة
ولا يحق لأي جهة طبع أو نسخ أو بيع هذه المادة بأي شكل من الأشكال، ترض نفسه للمساءلة القانونية.

القصّاص

روايةٌ

جمال حفني

إهداء

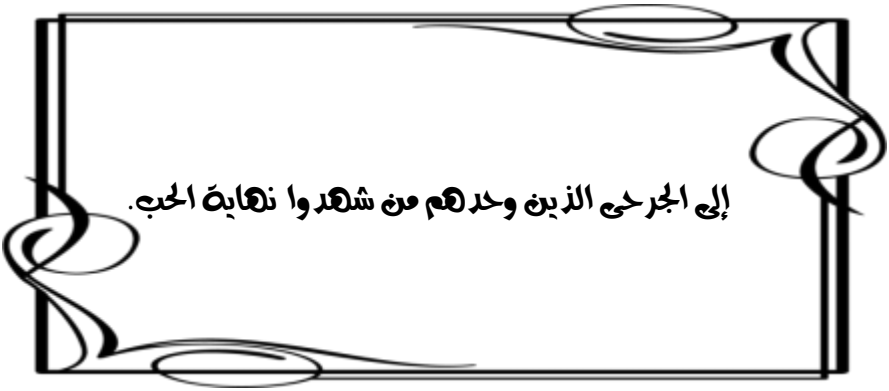

جلس على مكتبه واضعا أمامه الدفتر الجديد الذي اشتراه منذ سويعات لكتابة روايته الأولى، قرار أجله عدة مرات قبل أن يتخذه، ذلك لأن صديقه نصحه أن الكتابة ليست بالأمر السهل بتاتا، بل هي عمل شاق تجهد العقل وتسهد العين وتؤرق المضجع، وكما يعلم وأن الأفكار الجديدة تأتي في مواعيد غير مناسبة تماما للكتابة، كالدقائق الأخيرة قبل النوم مثلا، أو التنقل بين المواصلات، حتى خلال القيظ الشديد، والعجيب أن هذه الأفكار إن لم تدون فور تقافزها في العقل ستتبخر وكأنها شيئا لم يكن مهما حاول تذكرها فيما بعد، فالإلهام مثله مثل الملاك، يوحي إليك بالفكرة الجديدة الجيدة، إن استغللتها أحسن الاستغلال ربما تجني ثمارها، وإن تركتها فستموت بعد ولادتها مباشرة، ولذلك صاحبنا كان دائماً بمجرد أن تقفز الفكرة إلي عقله يخرج هاتفه ويدونها في الملاحظات أو يدون جملة أو جملتين كرؤوس أقلام ليذكر نفسه بها فيما بعد، وحين يعود إلى المنزل ويحاول ربط الأفكار أو إنمائها لا يجد أنها تستحق رواية بل قصة قصيرة وأحيانا لا تستحق الكتابة من الأساس..

أما الآن فقط اتخذ قراره في كتابة روايته الأولى، ومع الكثير من التردد في اختيار نوعيتها قرر أخيرا أن تكون رومانسية حتى بعد نصائح صديقه ونواهيه في نفس الوقت، فالكتابة في هذا النوع ليست بالأمر السهل إطلاقا، كما تتطلب العديد من القراءات في عموم الأدب والشعر والإلمام بشتى العواطف المختلفة المصاحبة للعشاق، سعيدة كانت أم حزينة، مرفرفة بين الزهور أم مدفونة في قاع القبور.

واستدل صاحبه على ذلك بقصة لشاعر لم يتذكر صاحبنا اسمه، هذا الشاعر كان متوسط الموهبة ويقول شعرا جيداً ويحكى أن هذا الشاعر أحب

إحدى بنات الملوك أو السلاطين فقد كانت مولعة بالشعر وتخصص له المجالس وتعطي العطايا،

وكان الشاعر يلمّح لها في شعره بين الفينة والأخرى فلا تصده ولا تقبله، حتى فاض أمره وأخبرها بما في قلبه فصدّته أيما صد مع أنها كانت تميل إليه بدورها، بعدها اعتزل مجلسها وراح يهيم في الصحاري والوديان وهو يذكر محبوبته ويرثي حاله حتى قال أبيات أصبح العرب يتخذوها أمثالا في العشق والألم، والوحدة والسأم، وحين تصلها أبياته كانت تضحك وتقول لو لم أصده لما كتب هذا ولا بلغ معشاره.

لكن صاحبنا رمى كل ذلك وراء ظهره وراح يقرأ شتى الروايات والأشعار وتحصّل على مخزون هائل كما يظن من المترادفات والتشابيه التي ستساعده في كتابة روايته الأولى الناجحة، بل وسيبهر القراء والنقاد معاً ويجعلهم يتساءلون وهم في حيرة من أمرهم كيف لهذا الكاتب الجديد أن تحظى روايته الأولى بكل هذه الشعبية والشهرة؟ بل كيف تسابق فطاحل الأدباء ممن ابيضت شعورهم وانحنت ظهورهم في مشوارهم الأدبي ونجحوا كل النجاح في كسب الجوائز ونفاد الطبعات؟

هيأ الجو المناسب؛ إضاءة خافتة مسلطة على دفتره؛ نصف شمعة وضعها في كوب فارغ يستخدمه للمشروبات الساخنة، ذلك ليوهم نفسه أنها تجلس في أحد الفنادق الفخمة مع امرأة جميلة ترتدي قميص أحمر مكشوف الظهر، تجلس أمامه بجسدها الأنيق ووجنتيها المتوردتين وشعرها الأشقر المنسدل، ولم ينس قبل كل ذلك أن يفرغ نصف علبة من معطر الجو في مختلف أنحاء الغرفة.

الرواية لم يرسمها في خيالة بالكامل، ولم يضع لها حتى رؤوس أقلام ليعود إليها طوال رحلة الكتابة، هي نصف مكتملة فقط، أو لنقل ربع مكتملة لنكون أكثر صراحة ودقة. لكنه مؤمن ويتمنى أن تزوره الخواطر والأفكار خلال مشوار الكتابة بل وسيجود عليه إلهامه بأفضل مما يحاول بناءه بنفسه، هكذا أقنع نفسه فلو استسلم للخواطر والهواجس فلن يكتب أبدا، هكذا كان يظن.

أمسك قلمه وقبل أن يكتب الجملة الأولى زاره هاجس جعله يتردد، فقد كانت نيته أن يجعل البطل والبطلة يتقابلان للمرة الأولى في إحدى الحافلات، ثم يتفاجئ البطل في اليوم الثاني أن هذه الفتاة تأخذ نفس الحافلة في نفس التوقيت تماما، بل والمفاجأة الكبرى حين يراها تنزل في نفس مكان نزوله وتتجه إلى بوابة جامعته، ومن القاعة التي ستدخلها سيعرف أنها في السنة الأولى.

فكر صاحبنا في طريقه يقربهما من بعضهما البعض ومن ثم يوقعهما في الحب ليبدآن رحلة شديدة الوعورة من التحديات، والمعاناة والألم المزوجين بالهيام والشجن، وسيفترقان في النهاية كما هو الواقع المرير في غير القصص والروايات.

لكنه توقف عن التفكير بعدما تراءت له سذاجة الفكرة، إذ كيف في بلد مثل بلده ستحدث قصة حب بالصدفة كهذه؟ قصص الحب الحالية يرتب ويخطط لها حسب المصلحة المرادة من خلفها، بل كيف لحافلة أصلا أن تأتي في نفس الموعد مرتين على التوالي؟

لكنه يجب أن يكتب رواية رومانسية، يدغدغ بها مشاعر القارئات ليحضرن حفل توقيعه، ويلتقطن الصور مع روايته وينشر هذه الصور على صفحاته الشخصية بمواقع التواصل، ويحسده عليها أقرانه وغيرهم من الكتاب، وبينما هو جالس في واحدة من حفلات التوقيع العشرون مثلا تحظى بانتباهه من ضمن

الجالسات فتاة جميلة، هادئة الملامح بوجه أبيض مشرب بالحمرة، وعينين لوزيتين خضراوين، تدل ملابسها و اتساق ألوانها على ذوق خاص تتمتع به، وبعد أن تنتهي فقرة الأسئلة يتهافت عليه الحضور لتوقيع رو اياتهم، هو لا يعطيهم جل تركيزه بل يلمح الفتاة بطرف عينيه بين اللحظة والاخرى، فمن الواضح أنها تنتظر الجميع من الانتهاء لتأتي هي، ربما من شدة حيائها.

ازدادت جمالا في عينيه، وفي الأخيروبعد أن انتهى من الجميع نظر إليها مبتسما وأومأ إليها برأسه ليشجعها على القدوم.

مشت تتخبط وهي ممسكة بروايته حاضنة إياها بين زراعيها، تقدمت تجاهه والقلق والارتباك ظاهرين على ملامحها ومشيتها، ثم وقفت أمامه مباشرة فحياها برأسه قبل أن يقوم من مكانه ليعطيها ميزة لم يعطها لغيرها دون قصد منه، ولكنها لمّاحة ولاحظت ذلك، أخذ الرواية ووقعها بخط جميل وبهدوء لم يفعله أيضا مع غيرها. وحين همّت بالمغادرة تجرأ وسألها عن نوعية الروايات التي تفضلها.

بكلمات متلعثمة في البداية أجابته بمدى حبها للأدب الروسي ومسرحيات ويليام شكسبيروالعقاد ومحفوظ وغيرهم من عظماء الكتاب.

ازدادت جمالا أكثر في عينيه، فمن النادر أن تجد فتاة بهذا الجمال وعلى قدر كبير من الثقافة في آن واحد، فالمتعارف عليه أن معظم الجميلات غبيات أو يمتلكن أي صفة حمقاء تجعل الشخص يقول وهو يضرب أخماس بأسداس الحلو دائما ناقص.

كل هذا وهو يمسك بالرواية ليضمن بقاءها لمدة أكثر، وحين انتهى الكلام والنقاش الذي استمر لدقائق سريعة نظرت للرواية فيما معناه أن يعطيها لها معلنة انتهاء الحديث، فقال وهو يناولها الرواية سأنتظر رأيك حين تكملها فوعدته بذلك فورانتهائها مباشرة من قراءتها.

مر أسبوع كان قد فقد الأمل في أن تراسله حتى كاد ينساها، وبعد فترة وجد رسالة من فتاة تذّكره بنفسها وبحفل التوقيع، استقبل رسالتها بحفاوة ملحوظة وهو يراجع في نفسه تلك الذكري السعيدة القصيرة.

أثنت على الرواية وأخبرته ببعض الملاحظات البسيطة التي لولاها لكانت الرواية أفضل بكثير، لكنها في المجمل جميلة جدا، وتستحق أن توصي بها صديقاتها.

وقبل أن ينتهي الكلام أي حين أوشك على الانتهاء طلبت منه أن يقترح لها رواية جديدة تقرأها، سألها عن عنوان منزلها وأخبرها أنه سيرسل لها الرواية المقترحة كهدية وكمكافاة لها على بعض النصائح التي قدمتها له، إذ يبدو أنها قرأت الرواية جيدا وليته أرسلها لها قبل دار النشر لتطلعه على هذه الملاحظات، رفضت بشدة وبأدب في البداية لكن مع إلحاحه المتكرر و افقت على مضض وأخبرته بعنوان منزلها فأرسل لها واحدة من مكتبته.

بمرور الوقت وكثرة المراسلات أصبحا صديقين، تبادلا الروايات حتى أصبح جزء من مكتبتها يحوي كتبه وجزء من مكتبته يحوي كتبها.

وفي إحدى الأيام وبعد أن تطورت علاقتهما جدا صارحها بحبه وطلب منها أن تحدد له موعد لزيارة أهلها للتقدم لخطبتها، لم يكن هناك أسعد منهما في هذه

اللحظات، ارتدى أفخر الثياب ورش نصف قنينة عطر يستخدمها فقط أثناء الزيارات الهامة أو حفلات التوقيع، اختار باقة ورد حمراء مرصعة بالورود البنفسجية على أطرافها.

دق جرس بابها ففتحت له وهي مبتسمة بوجه يشع سعادة من كل جوانبه، مرتدية فستان ذهبي فضفاض كأنها أميرة من أميرات ديزني ثم..

استيقظ صاحبنا من حلم اليقظة هذا وهو يشوّح بيده ويلعن خياله الذي تمادي ووصل به إلى هذا الحد من القصص الخيالية، فخيال الروائي الجامح هذا سيقضي عليه في يوم ما، خصوصا أنه دائما ما تزوره الهواجس قبل النوم مباشرة ويتخيل نفسه صاحب شركة كبيرة، يرتدي البزاة الأنيقة النظيفة دائما، وتحت سلطته جيش من الموظفين بيض الوجوه مهندمي الثياب كالذين يراهم يعملون في البنوك. وفي يوم من الأيام يدخل عليه صديقه أو لنقل واحد من معارفه الذين يكرههم لأنهم يضمرون الحقد والغل في نفوسهم عكس ما يظهرون من طيبة وتودد لكن عيونهم ولغة جسدهم تفضحهم دائما.

تحدث جلبة في الخارج ويدخل هذا الشخص يصحبه صوت السكرتيرة

وهي تقول:"هذا لا يصح يا فندم" فيشير لها صاحبنا بحركة من يده أن لا بأس، ثم يدعو الزائر البغيض بإشارة من يده إلى الجلوس وهو لا يزال يوقع بعض الأوراق والمستندات الهامة الموضوعة أمامه بقلمه الأسود الحبر ذو الرأس المدببة كالخنجر، ثم يقول للزائر دون أن يرفع رأسه" قهوة أم شئ آخر؟" فيجيب الزائر وهو يمصمص شفتيه" عصير فراولة"

يضغط على زر في طرف المكتب ويقول"عصير فراولة وحلبة حصى يا منى" وينهي آخر الأوراق ويعلق القلم في جيب سترته الداخلي بطريقة هادئة كأنه نزل من بطن أمه ليكون مديرا، ينظر أمامه فيجد الزائر يحملق ويتطلع فيما حوله من أنتيكات وتحف وطقم الأنترية وغيرهم بعيون تكاد تقفز من مكانها، فيسب أم الزائر وأمواته جميعا بعبارات مختلفة في سره وهو يجز على أسنانه.

يسأله عن حاله وأحواله لينتشله من طقس الحسد هذا قبل أن يشتعل المكتب أو يصيبه مكروه، فيقول الزائر وعيناه مملوءتين بالأمل والعشم أنه جاء يبحث عن عمل، و أنه لن يجد ملجأ ولا مأوى إلا عند أخيه وحبيبه.

فيجز على أسنانه وتتغير ملامح وجهه من الداخل ويتمنى لو بصق على الزائر وصرخ فيه قبل أن يقفز عليه مكيلا له اللكمات ويأخذه الأمن ليلقوه في الشارع ثم تأتي منى تضمد جراح قبضته الملوثة بدماء ذلك اللعين، تضمد جراحه بيديها الناعمتين ورائحة عطرها التي تستهويه دائما فيضع رأسه على كتفها لا إراديا كالمسحور ليتنفس عطرها و أنوثتها عن قرب لكنه يمسك نفسه ويكبح جماحها في اللحظات الأخيرة قبل أن يتمادى ويقع في المحظور.

دخلت منى بعد دقيقة ممسكة بصينية عليها عصير الفراولة والحلبة حصى التي طلبها المدير منذ عدة ثواني كأنها تعلم الغيب وقامت بتحضيرهم مسبقا حتى قبل مجيء الزائر.

رؤيتها تعيده من شروده وتوقظه من حلمه ورأسه الموضوعة على رقبتها، فيقول لصاحبه وهو يختلس النظرات لمنى كالعادة أن الشركة في كامل عددها ولا يوجد أي مكان فارغ يناسبه، قال جملته ليمهد للوظيفة التي خطرت في ذهنه للتو، يلح الزائر ويدعو للمدير كشحاذ يريد صدقة، وكيف أن شركة كبيرة كهذه لا

وجود فيها لوظيفة شاغرة مهما كانت بسيطة، فيسأله وقد نجحت خطته"ما رأيك أن تعمل في البوفيه؟ فكما ترى لا يوجد قسم بوفيه لدينا هنا، كل المشروبات نطلبها من المقهى أسفل البناية" رجع الزائر بكتفيه للوراء وقد تغير وجهه بسرعة وأطرق مفكرا لحظات قليلة، كان يظن أنه كصديق المدير سيعمل نائبا للمدير أو مساعدا له، المهم أمه سيكون أقل منه بدرجة، فكر وفكر ثم وافق على مضض وليته لم يفعل.

المدير أصبح فجأة محبا للسحلب بدلا من الحلبة حصى، وفي كل مرة يخبر صديقه بعيب جديد في السحلب، مرة ثقيل وأخرى خفيف، مرة السكر زيادة ومرة السكر قليل. بل وفي بعض المرات ينفعل علي صديقه بشدة ويعتذر منه بعدها متحججا بغباء الموظفين وكسلهم الذي سيودي بالشركة إلى الخراب.

وفي مرة كان السحلب خفيفا زائد السكر، فاستغل صاحبنا غضبه وانزعاجه مدعيا أن إحدى الصفقات قد سلبتها منه شركة أخرى بسبب أحد الموظفين وبعد أن يرتشف رشفة من السحلب وأعاده أمامه برطم ببعض الكلمات ثم ضرب السحلب وكوب الماء معا بظهر يمناه وهو ينهي المكالمة صارخا ضاربا الهاتف، ويعتذر لصديقه الذي جلس على ركبتيه ليمسح الأرض وهو يشكو له تقاعس الموظفين ويطلب منه سحلبا آخر.

مواقف عديدة وأفكار روايات شتى تمنع صاحبنا نومه وتؤرق مضجعه وتنقص سويعات نومه ومع ذلك فهو يحبها ويحب الخوض فيها لدرجة أنه فكر في كتابة رواية يجمع فيها كل أحلام اليقظة هذه، ويسميها خواطر وأحلام في دنيا اللئام لكنه تراجع عن ذلك وسخر من نفسه في سره.

"إذن الرواية لن تكون رومانسية" قالها صاحبنا في نفسه" وتابع وهو يسأل كيف تكون رومانسية أصلا؟ كيف أخدع القارئ بقصة تكتمل بسعادة على عكس ما يحدث في الواقع؟ يجب أن تضاف كلمة الخيالية بعد كلمة الرومانسية في هذا المصطلح أو حتى قبله ليصبح اسمها الخيالية الرومانسية أو الرومانسية الخيالية.

فالبطلة جميلة جدا؛ يخلقها الكاتب ويصورها كأنه يتمناها لنفسه وبين يديه لا بين دفتي كتابه، بل لا يكتفي بذلك، يزايد في الوصف حتى يثير شهوات القراء المساكين الوحيدين دون رفيق، فلو كانوا مرتبطين لما وجدوا للقراءة وقتا، سيستبدله النكد بالتأكيد.

يصورها لهم حتى يخيل إليهم أن الفتيات الاتي يرونهم من حولهم سواء في الشارع أو الجامعة أو العمل ما هم إلا قطيع من النعاج مقارنة بجمال البطلة.

ثم لماذا تكون البطلة جميلة؟ هاه!

لماذا لم نسمع عن بطلة متوسطة الجمال مثلا، أو قبيحة حتى!

هل جمال الفتاة وحده كفيل بجعلها بطلة لرواية رومانسية؟ أم أن قصص الحب لا تحدث إلا مع الجميلات فقط؟

أكبر خطأ يقع فيه الكاتب حين يصور البطلة جميلة، وتضع القارئة نفسها مكان البطلة ومن ثم تطالب بالمعاملة كالمثل، وتكيل النكد أطنانا لحبيبها أو خطيبها أو حتى زوجها غير الرومانسي العائد من العمل للتو مثقلا بالهموم والضغوط وأبناء إبليس يتقافزون أمام عينيه، فتطالبه بالاهتمام والرومانسية

وتتهمه بنقص حبه تجاهها بعكس البداية، وكيف أنه في فترة الخطوبة كان يمشي على يديه ورجليه بل ورأسه أحيانا والآن لا يظهر القليل من الاهتمام؟

تغلي دماء الرجل وتتنافر عروقه ويصرخ فيها مطالبا ببعض الامتنان والتقدير والراحة، بل وربما تنتهي القصة كلها في هذا المشهد، ومن السبب؟ الكاتب.

محى فكرة الرواية الرومانسية من نيته وهو يضرب بمؤخرة القلم على مكتبه الخشبي مصدرا نغمة أعجبته فراح يلحن ويعزف لدقيقتين مقطوعة موسيقية لم يعرف تكملتها، مقطوعة أنسته التفكير في الكتابة والرواية التي جلس من أجلها. وحين تكررت المعزوفة - أي لا جديد - عاد لرشده ساخرا من أفعاله نادما على المعجبات اللاتي تركهن خلفه يلوحن بروايته ويتغنين بجمال اقتباساته ونعومة ألفاظه ونبل بطل الرواية الذي تزوج البطلة في النهاية وأوفى بوعده كما لم يفعل رجال هذا العصر.

لكنه، وللأسف، شعر فجأة بغصة في حلقه وهو يتذكر محبوبته، زاره طيفها على حين غرة، أغمض عينيه مسترجعا ذكرياتهما الجميلة ولحظاتهما المبهجة، بدأ الحزن يتسلل إليه رويدا رويدا كسحابة سوداء، لم يحاول طردها بل راح يستمتع بهذا الألم اللذيذ مستسلما متلذذا كعادته، والغريب أنه كان يستدعي تلك السحابة من وقت لآخر إن نسيت زيارته.

تفاقم حزنه شاعرا بألم يدغدغ بطنه ويسري في أوردته كما السم، عبس وجهه وانكمش كالطفل الصغير ومن ثم فقد الشعور بالقلم الممسك به فسقط بين قدميه.

لم يعره انتباها وهو يتذكر ضحكتها، مشيتها، غيرتها، كانت حورية أهداها له ربه في دنياه قبل مماته.

تذكر أيضا كم كانا يقضيان الليالي معا، تمر الساعات كاللحظات، وتمر شدائد الأيام وكوابيس القدر كنسائم الربيع، وتمر المصائب كالرياح المحملة بروائح الفل والياسمين، الفراق صعب جدا والأصعب منه أن يكون لنصفك الآخر نصف آخر غيرك.

تذكر الكوخ الذي بنياه في خيالهما معا، بنياه في ساعة حب وسمر، كوخ تحيط به جزيرة يحيطها الماء من كل مكان، أشجارها مثمرة وحيواناتها أليفة.

تذكر أيضا الإهداء الذي نوى أن يخطه بحروف اسمها والمقدمة التي سيمدح فيها العشق والعشاق والرواية الرومانسية التي ستكون مصدر بهجة وإلهام لكل عاشق في العالم، لكن لا فرح يدوم ولا حزن ينقطع، فدوام الحال احتمال.

الأمر أشبه بالغرق، فلا أنت قادر على الخروج والنجاة بمفردك، ولا أحد يسمع صراخك الداخلي فيساعدك.

دفن رأسه بين يديه وساعديه فوق المكتب مغمضا عينيه بعد أن خارت قواه، لا يرى شيئا، سكاكين تالمة تلهو وتمرح في أحشائه، تذبح كل أمل وتنغرس في كل ذكرى سعيدة، انسابت من عينيه دمعة سريعة سقطت وارتطمت بصفحة دفتره، ثم لحقت بها أخواتها، كان يعاملها كابنته وليس كحبيبته، وبعد الفراق كان يدعو لها بأن يأخذ الله من حزنها ويعطيه ويأخذ من سعادته ويعطيها، والحياة نصيب.

نادرا ما تجد من يشبهك ويشاركك سعادتك، حزنك، تفاصيل يومك، لكن دائما ما تفقده.

لماذا لا يتزوج الحبيب بالمحبوب؟ فلو كل عاشق في الهوى اختار نصيبه، لم يكن هناك عاشق فارق حبيبه، كما قال جورج وسوف.

طالما سيفترقان لماذا جمعهما القدر؟ أحيانا يكون القرب هو أول مراحل البعد، أيحب الله أن يرى عبده كسير القلب؟

تذكر أنه بحث كثيرا عن بديلة مثلها فلم يجد، كأنها دواء نادر مات مكتشفه قبل الإفصاح عن سر مكوناته.

استغفر ربه بصوت مبحوح وهو يقول في نفسه ربما يحدث كل هذا معي ومع غيري لحكمة لا يعلمها إلا علام الغيوب، كان يعاملها بلطف دائما حتى في المراحل الأخيرة من الفراق، دموعه السوداء بللت بياض الورق فنهض متثاقلا ورمى نفسه فوق سريره، في كل معركة كان يخسرها كان يوبخ حصانه، لكنه بعد هذا الكم من المعارك تأكد من براءته، حاول النوم ليخلص نفسه من هذا البؤس لكن هيهات، تذكر المدة التي قضياها معا، علاقتهما لم تدم طويلا، لا يتداوى كسير القلب بالقلب الكسير، كل ما يعرفه الآن ومتيقن منه هو أنها بعد رحيلها أخذته معها.

تذكر نصيحة صديقه حين جاءه وحكى له مسرورا فرحا عن فتاته، كلماته كانت تتردد في كل مرة يحاول الاقتراب من فتاة جديدة لأنها سمع أن لا شئ ينسي المرأة سوى المرأة، قال له صديقه" لا تقترب أو على الأقل حافظ على المسافة التي لا تجعلك تتعلق، فما بين متعة البدايات وبؤس النهايات حظ عاثر يكتفي بالمشاهدة" وكان يقول له أيضا وهو ينصحه" تجنب البدايات تسلم من النهايات"

وبعد الفراق كان يسأل نفسه باستمرار، كيف ستلد من لا يحمل اسمه؟ وكيف أدلل من ليست والدته؟ وهكذا منذ رحيلها لم يفكر في أحد سواها، فكر فيها وفقط.

في اليوم التالي وفي نفس الميعاد تقريبا توجه إلى مكتبه وفتح دفتره بعد سهرة أليمة مساء أمس، قضاها متوجعا محاولا الهروب منها بالتفكير في رواية جديدة تستحق أن تُكتب.

طرد الهواجس والأفكار التي حاولت الاقتراب منه كما حدث بالأمس، وكتب عنوان الرواية التي اهتدى لكتابتها في صفحة كبيرة بخط مائل "العاهرة الصغيرة"

اختار الاسم ونوع الرواية الجنسي بعد حوار حامي الوطيس دار بينه وبين نفسه خلال اليوم، ونفسه أقنعته في النهاية.

ما الضرر من كتابة رواية جنسية؟

كل إنسان يمكنه كتابة رواية جنسية، فهي لا تعتمد على اللغة والأسلوب بقدر اعتمادها على المواقف المثيرة التي يصورها خيال الكاتب، تعتمد على إثارة الشهوات.

حسنا الآن بإمكانه أن يتخيل القصة مع المرأة المختارة منذ رؤيتها في الشارع مثلا أو التعرف عليها في إحدى منصات التواصل الاجتماعي، ثم يتقرب منها مرورا بمحاولات الشد والجذب، الرفض الشديد في البداية ثم اللين والخضوع في النهاية، يمكنه أن يصور الوضع المخل في غرفة من غرف الفنادق بعد أن يدخل هو وهي على أنهما زوجا وزوجة مثلا أو في مكان مهجور لتزداد المتعة والمغامرة

وتزداد معها ضربات قلب القارئ لأنه سيتصور نفسه مكان البطل، أو في الشقة التي اشتراها والدة منذ عقد ولا يسكنوها إلا أيام قليلة في كل سنة.

لكنه شعر أن كل هذا لا يمكنه أن يكوّن رواية، بل قصة جميلة في منتدى من المنتديات الخليعة، الرواية تحتاج إلى بداية ووسط ونهاية وهدف في المجمل، ولا يمكن أن يختصر الثلاثة في المشاهد الجنسية فقط.

في البداية عليه أن يختار البطل وأن ينتقي الصفات اللازمة والبيئة التي عاش فيها لتكون أخلاقه مناسبة لأفعاله، أو مثلا حاجته الجنسية بسبب عدم قدرته على عف نفسه سواء بسبب غلاء الأسعار أو تأخر سن الزواج وقلة فرص العمل، والمبالغ الباهظة اللازمة لإخماد شهوة رجل يخمدها حيوان بعد عدة أشهر من ولادته وليس عدة عقود كالإنسان الحالي، وغيرها من الأشياء التي تظنها الفتاة حجج للشاب للتملص منها ومن وحيها.

فكر قليلا وهو يضرب مؤخرة القلم بمكتبه محدثا نغمة مختلفة عن نغمة اليوم السابق، نغمة متوافقة مع سلّم أفكاره الجنسي وقال لالا ليس من المفترض أن تكون رواية جنسية، يمكنني كتابة أي نوع آخر، ماذا لو لم أجد دار نشر توافق على نشرها ويضيع وقتي في الكتابة والتأليف والتنسيق والترتيب؟

عادت نفسه تجيبه بنفس الإجابات التي أقنعته بها طوال اليوم، إن لم تُنشر الرواية في حياتك فبالتأكيد ستنشر في مماتك وتخلّد اسمك إن أتقنت حبكتها واخترت بعناية فكرتها، بل وربما لا تصبح رواية فقط وتتحول إلى فيلم كرواية لوليتا مثلا لفلاديمير نابوكوف والتي تصدرت روايات الأكثر مبيعا في العالم بعد رفضها عدة مرات من دور النشر الأمريكية لأنها جريئة ومخلّة بالآداب، ومع ذلك نشرت في النهاية وأغدقت الأموال على صاحبها.

أقنعته نفسه فالتمعت عيناه وهو يفكر في بطلة الرواية وجسدها ولكن انطفأت اللمعة تدريجيا بعدما هاجمه رفض القرّاء والمجتمع للرواية، بل ومهاجمتهم لشخصه وسبه بأقذر السباب متحججين بذلك أن المجتمع لا تنقصه مثل هذه الأفكار، يكفي ما أصابه من انتشار الفاحشة وزنا المحارم وحتى اللواط، وإن كان كاتبا حقا يستحق المدح والثناء فليكتب رواية تصلح حال المجتمع وتحثه على المثل العليا ومكارم الأخلاق ليقرأها الصغير قبل الكبير، فيتعلم منها ويستفيد من أخلاق أبطالها.

وهل حقا هذا دور الكاتب؟

عاودته نفسه من جديد وهي تضحك بنبرة ساخرة، مجتمع! أي مجتمع! المجتمع الذي يشقى فيه العالم ويتنعم فيه الجاهل!

المجتمع الذي يعرف الصح ويفعل عكسه!

المجتمع الذي يؤمن كل فرد فيه أنه الطيّب الخيّر صاحب صاحبه وما دونه مجموعة من الرعاع المنافقين عديمي الأمانة قليلي الأصل!

ثم تحولت نبرة نفسه من السخرية للجدية وهي تقول وتقنعه، لو كتبت رواية جنسية خليعة كما تكون الخلاعة ستجد مناصرين لك شتى، معظمهم من مدّعي الثقافة وحرية الفكر والتعبير، مرددين أن النص الأدبي لا يحاسب دينيا ولا أخلاقيا، يحاسب أدبيا فقط، بل وستجد من بين هؤلاء المؤيدين سيدات إن لم يكن معظمهن سيدات، سيدات فاضلات وبنات متحررات شرفاء من الخارج عاهرات من الداخل، يناصرونك ويساندونك ويقمن لك الحفلات ويجلبن لك المسرات وربما السهرات والـ... كما تعلم.

يكفيك في البداية عدد قليل من الأنصار وبمرور الوقت وظهور الاقتباسات وظهور تيار آخر مضاد لأنصارك تكون بذلك على أولى عتبات النجاح والشهرة، حتى وإن أساؤوا لك ولرو ايتك بالمنشورات والتغريدات، سيكونون بذلك دون وعي منهم قد حققوا دعاية لرو ايتك، حتى وإن كانت دعاية سلبية، فالدعاية السلبية يظل اسمها دعاية في الأخير، فيزيد عدد متابعيك ومناصريك ويمكنك بعدها أن تظهر توبتك يا سيدي وتكتب ما تشاء، المهم أن تثير ضجة وجلبة ويظهر اسمك، والقصص المشابهة لقصة نجاحك وشهرتك كثيرة كما تعلم، لكن الناس تنسى دائما.

اقتنع صاحبنا تمام الاقتناع وحلف و أقسم بأغلظ الأيمان أن تكون رو ايته جنسية خليعة وليحدث ما يحدث، ووقع اختيار بطلتها أن تكون فتاة وليس شاب، وبذلك يكون قد اصطاد الجنسين من القراء الذكور والإناث، الذكور لسرعة استثارة غريزتهم وإدمانهم لهكذا فكر، والإناث لحب استطلاعهم ومعرفتهم كيف تفكر العاهرة وماذا تفعل وكيف توقع بالرجال، والظروف التي جعلتها تفعل ذلك.

نظر لاسم الرو اية " العاهرة الصغيرة" وتأمله كثيرا وهو يسرح بخياله في كيفية البداية ولكن بعد قليل شعر بصداع في مؤخرة رأسه، صداع ناتج عن قلة الراحة بعد يوم شاق فقرر أن يشرع في الكتابة غدا ويلجأ إلى سريره الآن مفكرا في تلك العاهرة ويرسم جسدها في عقله كما سيتمناها أي رجل، ولا ضرر أن يكون هو أول من يضاجعها ويفض بكارتها.

أصدر هاتف سماح رنة خفيفة معلنة عن رسالة قادمة فالتقطته بسرعة، ابتسمت بغنج وهي تقرأها، عشيقها يسألها إن كانت بمفردها ليستطيع أن يهاتفها أم لا؟، غادرت سريرها على أطراف أصابعها متجهة لباب الغرفة، أخرجت رأسها مستكشفة مكان والدها شبه الضرير إن كان لا يزال يستمع إلى التلفاز، أو متواجد في الصالة لا يفعل شيئا سوى النظر في اللاشيء، التلفاز مطفأ ووالدها غير موجود، إذن قد دخل غرفته لينام.

بهدوء أغلقت الباب الذي كان شبه مفتوحا وعادت وهي تقفز مسرعة وارتمت على السرير، أرسلت رسالة لعشيقها رامي أنها بمفردها الآن، أي يمكنه الاتصال وفي آخر الرسالة وضعت وجه ضاحك يحمل قبلة حمراء.

لحظات ورن هاتفها، أجابت مسرعة وقبل أن تنطق سبقها رامي

قائلا " اشتقت لك " ازدادت ابتسامتها وهي تقول "و أنا أيضا"

فتاة تبلغ الثانية والعشرون من عمرها، أنهت دراستها الثانوية الفنية منذ ثلاث سنوات، ماتت أمها منذ مدة بعيدة وهي من تعتني بأبيها، وأخيها المسافر يعتني بهما، فهو يقضي معظم أيام السنة مسافرا في شتى المدن والمحافظات هنا وهناك، يعمل في البناء تارة وفي المزارع تارات ليوفّر له ولأسرته ما يلزمهم للعيش في ظل هذه الظروف الصعبة دون أن يتبقى له شئ يدخره لنفسه، يكفيه فقط أن يستر أسرته.

وفي غياب الأخ وجهل الأب بما يدور في هذا الزمن أصبح الحبل متراخيا لها، فلا يناقشها أحد فيما تلبس ولا يعترضها أحد فيما تضع من زينة ومساحيق تجميل وغيرهم، ومع أنها ليست بيضاء البشرة أو جميلة الطلعة إلا أنها فاتنة الجسد.

العباءات السوداء هي رداءها المفضل، تفصلّها ضيقة عند الخصر والصدر لتبدي للناس مفاتنها، سعيدة بما تملك من منحنيات راضية بما لا تملك من جمال الوجه وبهاء الحسن، وكأن الله قد عوضها عن هذا بذاك.

سرح صاحبنا وهو يسأل نفسه سؤالا لا يعرف إجابته، لماذا كل فاتنات الجسد لسن فاتنات الوجه والملامح؟ وفاتنات الوجه والملامح لسن فاتنات الجسد؟ تمتم بصوت منخفض"سبحان الله"، يقطع من هنا ويوصل من هناك ثم راح يكمل ويكتب.

سألها رامي متشوقا يطلب منها صورة، هي تفهم ما يريد وما يرمي إليه وأي نوع من الصور يريد، فقالت محتجة " أرسلت لك صورة بالأمس وغيرها أول أمس، أنا كما أنا لم أتغير"

فقال رامي بنبرة خالطها الهياج "أريد واحدة جديدة، ما المانع أن أراك كل يوم؟ لو تعرفين كم أشتاق لك سترسلين لي واحدة كل ساعة"

تعلم أنه يكذب، تستطيع الأنثى أن تفرق بين كذب الرجل وصدقه بسهولة ولكنها تميل إلى الكذب، صمتت قليلا وهي تراجع نفسها أو تمثل ذلك أمامه ثم قالت أخيرا "حسنا ولعلمك ستكون آخر صورة، أخاف أن يدخل والدي في أي وقت، سيقتلني إن رآني"

تسارعت أنفاس رامي وهو يقول"حسنا حسنا، آخر صورة، ولكن كوني كريمة هذه المرة أرجوك"

ضحكت بغنج ودلال وقالت " حسنا، سأغلق المحادثة والتقط صورة"

جف ريقه وقال متلهفا "أنتظرك، لا تتأخري، التقطيها بأكثر من زاوية، وتابع كمن يبرر طلبه ربما تكون الإضاءة في صورة أفضل من أخرى"

أغلقت سماح المكالمة ووقفت تخلع جلبابها المنزلي الخفيف، كانت ترتدي تحته قميص نوم وردي بحمالة، مزخرف بصدرية تملأها نقوش ورود بيضاء متشابكة، يغطي أسفل ركبتها بقليل.

أمسكت الهاتف ورفعته بيمناها، كانت تنوي أن تلتقط صورة كاملة من زاوية علوية ليرى الفستان ويرى جمالها الفتّان وتضاريسها الخلابة لكنها عادت إلى رشدها.

جعلت الهاتف موازيا لوجهها والتقطت أكثر من صورة في ثو اني، رمت الهاتف فوق السرير وارتدت عباءتها كما كانت وأمسكت الهاتف وراحت تختار من الصور أوضحهم وأجملهم من حيث الإضاءة والإثارة وزاوية الرؤية ثم قصت وجهها من أسفل عينيها حتى أسفل السرة بقليل وأرسلتها له؟

رأى رامي الصورة بعد جزء من الثانية من وصولها وضربات قلبه تتسارع، حدق في الصورة يريد أكلها، سماح شهية كفاكهة طازجة فوق شجرة جميلة تنتظر من يقطفها، تمنى لو أن هناك آلة تكنولوجية تنقله في لمح البصر من غرفته إلى غرفة سماح وهي بهذه الملابس، بلل شفتيه عدة مرات والتي أصابها الجفاف وهو لايزال يحدق في الصورة، بشرة صافية، جسد ناعم بض وصدر يريد القفز من مكانه مناديا من يلتقمه ويتلذذ بطعمه وليونته.

انتصبت أركانه على أشدّها وقال لها " أتقبلين الزواج بي؟"

صمتت سماح من هول المفاجأة، رامي يقولها صادقا، بل قالها فعلا، فعلى الرغم من وعوده السابقة الواهمة بأنها زوجته المستقبلة وبهذه الوعود كانت هي تبرر لنفسها إرسال صورها شبه العارية له، إلا أن هذه المرة تختلف..

لحظات صمت طويلة قطعتها أخيرا وهي تقول "أظنك تعرف عنوان منزلنا".

والحقيقة أن رامي يعرف العنوان بالطبع، فقد اصطادها أثناء زيارته لأقاربه في نفس محافظتها وفي بلدة قريبة من بلدتها، وبعد أن كان ينوي المكوث معهم لليلة أو ليلتان قضى أسبوعا كاملا يخرج بسيارته هنا وهناك مع ابن خاله، اصطادها وأخذ رقمها و أفهمها أنه جاء لمعاينة المدرسة الابتدائية المقرر ترميمها و أنه مهندس انتدبته الوزارة على أعمال البناء والترميم وهذا كان أكبر سبب لمو افقتها، بلهاء هي، كانت تظن أن المهندسين لا يكذبون.

كونه مهندس كان السبب الأول لمو افقتها، آه مهندس، بالتأكيد قضى عمره وهو يدرس ولا يعرف ألاعيب الفتيات ومكرهن بل وربما لم تكن له سابقة في الحب وإن كانت فربما تكون بريئة و أيضا منذ سنوات عديدة ولّت، هكذا قالت في نفسها، ثم رأت في أحلامها أنها يمكنها اصطياده فيتعلق بها ويقسم ألا يتزوج بغيرها حتى على الرغم من الفروقات الاجتماعية الكبيرة بينه وبينها، وبالتأكيد عائلته ستو افق في النهاية وإن رفض والده الاستشاري الكبير ذو الشعر الأبيض والذي يدخن الغليون فقط ستخضع والدته لاختيار قلب ابنها وتقنع الأب، فالولد هو فرحتهما الأولى.

مط صاحبنا شفتيه وهو يرى الرواية تأخذ منحنى آخر وقصة تم هرسها في مئات المسلسلات والأفلام العربية والأجنبية والهندية.

ثم هرش رأسه كثيرا وفي كل ناحية ثم تابع..

بعد أسبوع جاء رامي طالبا يد سماح، لم يأت معه أحد من عائلته بالطبع فهو لم يخبرهم، لأنه في قرارة نفسه ينوي ألا يكمل، والخطبة مجرد وسيلة للوصول إلى الغاية وهي سماح وملامستها عن قرب والإبحار معها في غياهب الشبق والعشق.

جاء معه أكبر أصدقائه عمر وعرّفهم به كذبا أنه ابن خالته وفي مقام أخيه الكبير، فوالده مسافر لإحدى البلاد الخليجية وأمه مريضة لا تفارق سريرها، وهو معينها وخادمها وليس له أخوات فهو وحيد.

هرش صاحبنا رأسه في عدم اقتناع مما كتب وفكر في خدعة أخرى يستخدمها رامي لإتمام الخطبة لكنه لم يجد، فقرر الاستمرار كي لا يوقف تدفق أفكاره على أن يغيرها لاحقا حين يجد الخدعة المناسبة، و أقنع نفسه بأن القراء لن يهتموا بمثل هذه التفاصيل، اهتمامهم وتركيزهم الآن على اللحظة الأولى التي سيختلي فيها رامي بسماح، وماذا سيفعلان وكيف و أين ومتى؟

تمت الخطبة وسط جو عائلي جميل وفرحة صافية ارتسمت على وجوه كل الحضور، وخاصة أخو سماح الذي كان أسعد الناس بها لخوفه وقلقه على مستقبل اخته بعد أن كثرت الهمسات والأقاويل عليها، والتي كان يسمعها عنها وبسببها كانا دائما الشجار، شجار يصل للضرب أحيانا على الرغم من فشله في إيجاد دليل واحد في هاتفها يثبت صحة ما يترامى إلى مسامعه بين الفينة والأخرى.

حضنها وقبل رأسها كما لم يحضنها من قبل، كانت في هذا اليوم جميلة جدا كأنما يراها للمرة الأولى خاصة بعد أن اشترى لها فستانين كلّفاه نصف راتبه

الشهري تقريبا وذلك لتلائم سيادة الباشمهندس، حيث جاء طائرا بعدما زفّوا إليه هذا الخبر السعيد.

أما ثاني أكثر الحضور بهجة فقد كان أحمد صديق رامي، فرحته وبهجته لم يكونا للخطبة الزائفة التي يعلم مصيرها، ولا الجو الأسري البديع المتواجد فيه والذي يجب أن يغمر كل الحضور بالسعادة والفرح لا، بل كان مبتهجا لأن رامي أعطاه قميص وبنطلون جديدين كان رامي مخصصهما للأفراح ولم يرتديهما سوى مرتين، بل لم يرض أحمد بهذين فقط، وطلب من رامي أن يعطيه حذاءه الأديداس الأصلي الذي يرتديه في المناسبات أيضا.

كان رامي ينظر لسماح متفرسا، فستانها الأزرق المطرز بحبيبات من الخرز الأسود اللامع، وعلى الرغم من اتساع الفستان إلا أن مفاتنها حين تذهب لتحضر شيئا وتعود تصرخ قائلة أنا هنا، أنا هنا.

تناولوا العشاء جميعا واستأذن رامي وصديقه أو وابن خالته في المغادرة بعدما أعطى هاتفه لسماح لتسجل عليه رقمها الذي هو معها بالفعل، وقبل أن يقدم على هذه الخطوة طبعا استأذن أبيها وأخيها فوافقا مرحبين.

اتخذت المكالمات فيما بعد منحنى أخطر من سابقه، تنهدات وآهات مكتومة كانت تقاومها سماح قبل خطبتها لكن الآن هو خطيبها أي زوجها المستقبلي، علاقة أشبه بزوجين وهذا ما أراده رامي جاعلا الخطوبة الزائفة وسيلة لزيارتها مرة كل أسبوع أو أسبوعين.

كان يستغل ضعف نظر والدها و انشغاله بالتلفاز أحيانا فيمسك يدها أو يحسس على فخذها دون قصد، فترفضه مرة وتغلبها شهوتها مرة، أصبح أكثر جرأة حتى أصبحت يده تمشي على أي شئ وكل شئ.

وفي أحد الأيام وبينما هي تنزل معه إلى الدور الأرضي لتغلق الباب بالمزلاج كعادة كل يوم تجرأ واحتضنها فجأة بكامل جسده حاشرا إياها بين الحائط وبينه. حركة مفاجئة تفاجأ منها هو قبلها، ولم يعرف كيف فعلها، حاول تقبيلها لكنها كانت تشيح بوجهها يمنة ويسرة، فتصطدم شفتيه بخدها مرة وبرقبتها مرة، هي تعلم أن الاستسلام في هكذا وقت وهكذا مكان خطر جدا وربما يتدرج الأمر إلى مالا يحمد عقباه.

لكن بإلحاح عينيه وتنهداته ولمساته التي تدرّب عليها في سره ألف مرة لانت شيئا فشيئا، لانت حتى أصبحت كعجينة بين يديه يشكلها كيف يشاء، كجهاز مستقبل ومتفاعل، يستقبل كل شئ وأي شئ.

قبّل خدّيها، وسببت حرارة لسانه رعشة في جسدها، دفن رأسه في رقبتها ويداه تتحسسان مؤخرتها، تتحسسها تارة وتعتصرها أخرى، زادت تنهداتها مثله، تسارعت دقات قلبها أكثر، فحضنت رأسه ووضعتها أعلى نهدها تريد المزيد وقد نالت.

وبحركة بطيئة بأطراف أصابعه وبينما يده على فخذها راح يرفع عباءتها تدريجيا من هنا وهنا إلى أن زاحها عنها بسرعة فمثّلت المقاومة باستسلام، وظهرت أمامه بقميص نومها الوردي الشفاف، قبّل ذراعيها الأملسين ورقبتها من جديد وداعب أذنيها وهي لا تفعل شئ سوى التنهد، التنهد الحار وفقط.

استغل رامي فرصة انسيابها وتحررها من قوتها وصلابتها الدفاعية وبأطراف أصابعه أيضا أمسك قميصها من الأسفل ورفعه ببطء وهو يداعب فخذيها الناعمين بأطراف أصابعه حتى رفعه إلى خصرها، كل هذا وهو يقبلها، يد تخلع ملابسها والأخرى سابحة في أركان جسدها.

بلل صاحبنا شفتيه اللاتي جفتا من أثر الموقف، تخيل نفسه مكان البطل، بل وتفاعلت أعضائه معه، لكنه توقف عن الكتابة فجأة وعاد إلى رشده وهو يسأل نفسه سؤال مهم وضروري، جاء في وقته، ماذا لو ظن القارئ أن الكاتب كتب هذه الرواية لإثارة الجدل بين الأوساط الأدبية وينال بذلك الشهرة السريعة؟

بل المشكلة الأكبر والمصيبة الأعظم لو ظن القارئ أن الكاتب قد فعل ذلك مسبقا مع فتاة ما؟ ومن ثم راح يخطه على الورق ويستعين بالذكرى على هيئة موقف في رواية،هو يشبه الحقيقة تماما، بل ماذا لو ظن أن هذه المواقف والمشاهد الخليعة تدور في عقل الكاتب حتى غلبته وخرجت من عقله إلى قلمه؟، لالا القارئ مخطئ تماما، فالكاتب يتمتع بموهبة فريدة ومقدرة عظيمة على كتابة رواية توحي إليك بأن أحداثها حقيقية تماما، ويستطيع كتابة رواية تخلّده وتخلّد اسمه دون اللجوء إلى مثل هذه المشاهد والتفاهات.

توقف صاحبنا عن الكتابة قليلا وهو يجيب نفسه المتسائلة، روايات كثيرة ناجحة لا تخلو من المشاهد الجنسية الصريحة التي يتفنن كاتبها في التعبير عنها حتى أنها تثير القارئ وترفع من معدل شهوته، كأنه يشاهد مقطعا إباحيا لا يقرأ عملا أدبيا.

هز صاحبنا رأسه يمنة ويسرة كأنما يريد نفض كل التساؤلات عنها ليخرج هذه الوساوس قبل أن تتمكن منه ليستطيع إكمال الكتابة دون تشويش، وأمسك قلمه من جديد وتابع..

شعر رامي بفقدان السيطرة على نفسه، تهدم آخر برج في عقله ونوى أن يقضم هذه التفاحة الشهية التي بين يديه، فرصة أتته لأول مرة في حياته ولطالما حلم بها سواء مع سماح أم مع غيرها، وها هي تتحقق أمامه، أنثى جميلة في بيت خال من الرجال، لا أقارب تزورهم ولا هناك من يسأل عليهم في هذه الساعة فما المانع من الاستمرار وليحدث ما يحدث.

لمح بطرف عينه كنبة خشبية متهالكة مغطاة بحصير أكل عليه الزمن وشرب، ضم سماح بين يديه كأنه يمسكها مخافة أن تفيق من غيبوبتها وتهرب منه في أي لحظة وتوجه بها نحو الكنبة، وهو لايزال ملتصقا بها كأسد يقبض على فريسته، أجلسها ثم أنامها ونام فوقها وهو يعصر نهديها بيديه ويعض رقبتها وشفتيها، وهي بدورها فتحت قدميها فاستقر بخصره بينهما وراح يحك خصره بخصرها في هدوء شديد.

توقف صاحبنا متسائلا من جديد، ماذا بعد؟

ماهي نهاية كل ذلك؟

هل سيجعل رامي يغتصبها ويسرق شرفها ويهرب فيأتي أخيها باحثا عنه يريد قتله، وبعد أن يتربص به عدة أشهر يستغل وجوده في مكان للعب البلاي ستيشن مثلا مع أصدقاءه وينتقم منه؟ أو ربما تصيب طلقته شباك المرمى فتحمل منه

سماح وتطارده هنا وهناك وهي تتوسل إليه ليتزوجها وتعده أن تكون عبدة له شرط يسترها ولا يفضحها.

كلها نهايات بائسة ومتوقعة وتم كتابتها عشرات المرات ورؤيتها على التلفاز مئات المرات أيضا.

نظر صاحبنا في ساعة هاتفه فوجدها تجاوزت الثانية بعد منصف الليل بدقائق، كل هذا الوقت قضاه في اللاشئ، حزن لعدم اقتناعه فيما كتب وجهده وعصر أفكاره بلا فائدة، وبينما هو على هذه الحال من الحزن واليأس الشديدين لمعت في ذهنه فكرة عبقرية، نعم عبقرية. راح يتذكر خيوطها وتفاصيلها لكنها استعصت عليه في البداية.

حاول التذكر جاهدا، نعم. منذ ثلاث سنوات تقريبا حين كان يكتب القصص القصيرة وينشرها لأصدقائه ومتابعيه وردته رسالة في صندوق الوارد من مستخدم جديد، مستخدم دخل وسائل التواصل حديثا، فلا توجد معلومات عنه ولا منشورات له.

-مرحبا.

-مرحبا.

-بما أنك كاتب، أريدك أن تحكي قصتي، أرسلت له رسالة صوتية ليتأكد أن ما ستقوله الآن هي فتاة وليست شاب يريد المزاح.

-وماهي قصتك؟

-أنا فتاة في عامي الثاني من الجامعة، وعندي عادة سيئة جدا، ولا أستطيع التخلص منها.

بدأ الشيطان يلعب في رأس صاحبنا وهو يعرض عليه صور كل العادات السيئة التي يمكن أن تفعلها فتاة مراهقة في مثل عمرها.

تمالك صاحبنا نفسه وأعصابه كي لا يظهر عليه التسرّع أو الفضول وقال:

-وماهي هذه العادة؟

صمتت الفتاة قليلا وكان من الواضح أنها تفكر مليا، هل تكمل وتخبره بكل شئ أم لا وكأن شيئا لم يكن؟ لكنها تريد أن تتحدث ويستمع إليها أحد، أحيانا يود الواحد منا أن يتحدث إلى شخص لا يعرفه، يتحدث إليه كثيرا ويخبره بكل شئ وبصراحة مطلقة، فهو لن يكشف هويته وبعد ذلك يقتله أو لا يحادثه مرة أخرى، المهم أنه أخرج كل ما في نفسه وسينال بذلك بعض الراحة.

اختارت الكاتب لأنه سيكتب قصتها بالفعل ويعتبرها مصدر جذب لشريحة كبيرة من القرّاء، ويكتب في الأعلى هذه القصة مبنية على أحداث حقيقية، فربما وبالتأكيد ستقرأها الفتيات ولا يقعن في مثل ما وقعت فيه هي، فقالت:

-أرسل للشباب صوري العارية دون حتى أن يطلبوها، أحب إثارتهم والتحول السريع للواحد منهم، من شاب محترم يدّعي المثل والأخلاق العليا إلى حيوان، ثور هائج يطالب بالمزيد ويتمنى مكالمة هاتفية للممارسة.

صمتت مرة أخرى منتظرة تعليق أو ردة فعل عن سبب ذلك لكن شيئا لم يحدث، أعجبها إنصاته واهتمامه لما تقول، أما صاحبنا فلم يستغرب مثل هذه الأشياء فهي كثيرة الحدوث في هذا الزمن، في البداية كان الرجل هو من يستدرج

المرأة لفعل ذلك أما الآن فالموازيين مقلوبة، أحدهم غير إعدادات الكون بقصد ولا يريد إعادة ضبطها من جديد.

الآباء والأمهات يتهمون الإنترنت بإفساد الشباب والمجتمع، وهو برئ من ذلك، الإنترنت لا يفسد المجتمع، المجتمع فاسد والإنترنت أظهر فساده، وها هي فتاة بريئة تشتكي مما يشتكي منه الرجال، هذه عادة في الأصل صاحبت الرجل منذ آلاف السنين وها هي الآن تنتقل للمرأة بكل سلاسة ويسر.

-في البداية لم أكن كذلك، فأنا من عائلة محترمة سواء صدقتني أم لا، فالكثيرات يقلن ذلك بعد المصائب، أبي وأمي يعملان في وظائف مرموقة لكنهما أبعد ما يكونا عني، لماذا تركتني أمي بين صديقات السوء؟ لم تسألني ولو مرة عن صديقتي هذه أو تلك، لم تسألني عن صفات صديقتي أو كيف تعاملني؟ أين نخرج ومتى سنعود؟ لم تفعل ذلك مطلقا، ربما لأنها تثق في أو ربما تثق في تربيتها، كانت للأسف ترى الظاهر مني فقط.

ومثلي مثل أي فتاة، تعرفت على صديق وتحولت الصداقة في غضون أسابيع إلى حب، استطاع بسهولة ويسر التسلل إلى أعماقي وفهم أفكاري وآرائي، كان متفهما جدا وعقلانيا إلى أبعد الحدود، رأيت فيه الحبيب والزوج، تمنيته، تحررت بين يديه من كل السلاسل والقيود، كان يعرف كيف يرضيني، متى يخاصمني، وفي أي وقت يصالحني، أقسم أني أول فتاة يعرفها مع أنه كان خبيرا جدا وكأنه تعامل مع المئات من هم مثلي بل الآلاف، لكني كنت أطرد تلك الوساوس معتقدة أن كل الرجال هكذا وإلا سيكون الرجل والمرأة سواء لا فرق بينهما.

المهم، في البداية لم يفصح لي عن حبه، كان يمارس معي ألاعيب العشاق كما يسمونها، ويتلذذ بذلك، ويلّمح حتى أكاد أظن أنه سيقولها لكنه يتراجع ويعود كصديق من جديد.

كان يشتتني ويربكني كثيرا بطرقه وألاعيبه، أنا فتاة جميلة وفي كل مرحلة تعليمة كان هناك أكثر من شخص يتودد إلي ويحاول التقرب مني فأصده، أصده لأني أعلم مبتغاه أو أنه انجذب لجمالي فقط وليس لي ولروحي، ولكن ما المشكلة إن كنت تعلقت بأحدهم وقتها؟ ما المشكلة أن ينجذب الرجل للجمال؟ المرأة ما هي إلا جمال، الشعراء يتغزلون في الجميلات، المرأة خلقت للجمال، لتكون جميلة، أما الرجل فصفاته هي التي تزينه، كالصدق والمروءة والشجاعة وغيرهم من أخلاق، هكذا كان تفكيري وأدركت بعدها أني كنت مخطئة.

وكما أخبرتك، أحيانا يعاملني كصديقة وأحيانا كحبيبة دون الاعتراف أو الإفصاح، في البداية كنت أظن أني الوحيدة التي يراسلها، ولكنه بين الحين والآخر يحكي لي عن صديقة له، يخبرني بمشاكلها وكيف أنها تكلّمه كثيرا بالساعات ليجد معها حلا لمشكلتها، و أنا أغلي كبركان هائج وأحاول التماسك أمامه مع أنه بالتأكيد كان يفهم تغير نبرتي وكلامي في ذلك الوقت، تخونني العبارات والألفاظ أحيانا وأحيانا أخرى أحاول أن أسيطر على نفسي بقدر ما أستطيع، حتى وصل به الأمر وأخبرني بمشكلتها، مشكلة عادية عرفت من خلالها لكوني أنثى أنها تستغل مشكلتها هذه للتحدث إليه والتقرب منه، قررت أن أخبره بذلك و أقول له كم هي وغدة تحاول الإيقاع به في براثنها وأن تسرقه مني أو أنها وغدة وفقط وتشغله بمشكلة لا وجود لها، لكن مديحه لها ووصفها بالبراءة والطفولة وعدم إدراكها

للو اقع وطبيعة النفوس الخبيثة من حولها منعني من ذلك وتركته لسذاجته، وكنت أنا الساذجة.

وإذا زاد الحد عن استطاعتي كنت أتحجج و أنهي الحديث معه متعللة ببعض الواجبات المنزلية أو الدراسية وأرمي الهاتف و أنا أسبه وأسبها لكني أتراجع عن سبه لبراءته وعدم فهمه لكيد النساء.

كنت أراه مرغوبا من الفتيات أيضا، هناك العديد منهن على صفحته الشخصية، يضحكن معه ويمازحنه، زاد ذلك من تعلقي به وأردته لنفسي، تبا لطبيعتنا نحن النساء.

في النهاية وبعد الكثير من الأسابيع وبعدما تأكد أيضا من مشاعري الفاضحة تجاهه اعترف لي بحبه فاعترفت له بعدها بثواني، لم أستطع كتمان الأمر من فرط السعادة، حاولت كتمان مشاعري لأحافظ على رزانتي كما تفعل الفتيات كما أسمع في لحظة كهذه لكنني فشلت ولم أستطع كتمان حبي. بعدها بدقائق أخبرته بشعوري تجاه صديقته، غضبي ولعناتي اللذان أصبهما عليها حين كان يحدثني عنها، أخبرته بكل شيء كالبلهاء، والعجيب أنه بعد ذلك لم يذكرها لي ولو مرة واحدة، ربما لم تكن له صديقة من الأساس وفعل ما فعل لإثاري سخطي وغيرتي الأنثوية، لا أعلم.

بعدها تجرأت كلماتنا، فتح هو الباب فدخلت معه مترقبة في البداية ثم طواعية، في الليلة الأولى لهذه الأوهام كان يلمّح لي أنه يتمنى رؤيتي برداء أصفر قصير وراح يتخيل مظهري في الرداء وشعري الذهبي المنسدل على كتفي، وبشرتي الناعمة وجسدي الأبيض يرسمان لوحة من لوحات أشهر الفنانين.

كنت أستمع لهمساته و أنا نائمة هائمة في وصفه، و أتخيلني ألبس ما يقول و أفعل ما يتخيل، أخبرني أنه يتمنى أن يخطفني ونكون معا في غابة مترامية الأطراف وبها كوخ خشبي صغير هو عش حبنا وزواجنا، نقطف الفاكهة الطازجة الشهية من هنا وهناك ونتغذى على الحيوانات التي يصطادها هو كقناص خبير محترف، نشوي صيدنا كما يفعل القدماء ونأكل طعامنا في الطبيعة تحت السماء.

نفترش الرمال ويأخذني بين ذراعيه وهو يشير إلى النجوم، ونحاول تكوين أشكال ورسومات من خلالها، في البداية كنت سأعترض على ضمّه لي لكن اللوحة التي رسمها جعلتني أنسى ذلك أو أتناساه.

ويكون معنا خيل أبيض نجوب به الغابة هنا وهناك، بأشجارها وطبيعتها الخلابة وفي وسط كلامه قال أنه سيمتطي الحصان ويأخذني أمامه ومن ثم يلتصق بي كي لا أقع أو يصيبني مكروه، فيضع يديه حول خصري ممسكا اللجام ويقترب برأسه فيشم رائحة شعري المتطاير خلفي، كان كلامه يأخذ منحنى خطرا و أنا مستسلمة، وما إن سمع تنهيدة قصيرة أفلتت مني دون قصد أسرع يقول أنه سيضع فمه على رقبتي من الخلف يقبلها قبلة صغيرة فقط، ويداعب رقبتي بشفتيه ويحركهما هنا وهناك دون أن يرفعهما، فقد تمنى ذلك كثيرا ولم يجد فرصة للاعتراف لي بذلك.

وها هو قد آن أوان تلك القبلة، تنهدت مرة أخرى تنهيدة أكبر من سابقتها و أنا مضطربة لا أدري ماذا يحدث لي، ولماذا انتابتني قشعريرة سرت في شتى أنحاء جسدي فأصبحت مستسلمة تماما لكلامه ومخيلاته؟

أحببت ما يقول، وتابع أنه سيمسك اللجام بيد وبيده الأخرى سيتلمس بها ذراعاي العاريين وفخذاي المنكشفين، بدأ كلامه يأخذ منحنى أصعب وأخطر من ذي قبل، حاولت تنبيهه، ناديته باسمه عدة مرات لأوقظه من هذا الحلم الجميل وأوقظ نفسي معه لكن نبرتي كان معناها أرجوك توقف وأكمل، لا يجب أن يحدث ذلك، أنا بين يديك يا أميري، كنت أطلب الشئ وضده، ذبت معه وذاب فيّ، فقال أنه سيوقف الحصان وينزل وينزلني وهو يضع يده تحت ذراعاي، ينزلني وهو يحتضنني ونرتمي معا فوق الرمال، أنا تحته وهو فوقي يتلمس بأطراف أصابعه جسدي ويقبض على شفتي الورديتين اللاتي تشبهان طعم الكرز، ثم ثم ،، أنت تفهم ما يحدث بعدها.

فعلنا ذلك مرات ومرات وفي كل مرة كان يأخذني في مكان مختلف، لم أكتف بهذا وفقط بل حين كان لا يجد مكانا أو وصفا كنت أساعده أنا و أفكر معه و أنا أتحدث وأصف الأماكن كما كان يفعل هو، كان سعيدا بذلك ويشجعني ويمدحني بأن خيالي أخصب وأجمل من خياله، كم كنت حمقاء!

وفي يوم من الأيام طلب مني صورة من الصور التي كما تعرفها، اعترضت في البداية وكنت مصدومة وحازمة في آن واحد وصرخت فيه بألا يعيد طلبه هذا مرة أخرى، وإن كنت سمحت به في أحاديثنا وخيالاتنا فلن أسمع به في الو اقع.

تأسف وندم واعترف أن الكلمات خانته والمشاعر فضحته واشتياقه أفلت لسانه وعقله، ولم يصدّق نفسه بأنه طلب ذلك، ولكن بمرور الأيام حدث ما أراد وأرسلت له صوري ولا تسألني كيف، صور شبه عارية ثم نصف عارية ثم عارية تماما وهو يمدحني ويشجعني ويصف مفاتني ويتفاجأ بهذا الجمال وكأنني الإلهة أفروديت، يفعل ذلك لأستمر بالطبع.

بدأت بعدها تظهر المشاكل أو يختلقها هو، لا أدري، ظهرت المشاكل بعدما أخذ كل شئ وفعل كل شئ، يا لغبائي، لم أفهم مقصده من البداية، كنت غبية جدا، وفجأة وبدون مقدمات تركني، تركني وكأن شيئا لم يكن، كأننا لم نسهر الليالي وتسرقنا الأحلام، كأننا لم نقرر الزواج ونعد الأيام، كل شئ تبخر فجأة وكأن شيئا ما كان.

انطويت على حالي لأسابيع لا أكلم أحدا، أصبحت وحيدة كسنة هجرية لا يتذكرها أحد، والغريب أنه لم يشعر بي أحد، كيف يشعرون بي والكل منشغل بحاله؟ زارتني بعدها فكرة مجنونة، لماذا لا أبدأ أنا بالدخول إلى الشباب والتعرف عليهم، لماذا لا أعطيهم ما يشتهون قبل أن يطلبون؟

وأمنعهم عني فجأة فيشعرون بما شعرت به، وأنتقم من الجميع ويكون انتقامي أكبر من خذلانه، هو خذل بنت من بنات حوّاء، أما أنا فسأخذل جميع أولاد آدم، ولا أخفيك سرا فقد كنت أشتاق لمثل هذه الأمور أيضا فهي كالمتاهة، بمجرد أن تدخلها لن تستطيع الخروج منها.

أنشأت صفحة وهمية ودخلت على صفحة أحدهم الشخصية وبدأت في التعرف عليه وهو مرتاب غير مصدق، ربما ظن أني حبيبته أو خطيبته وتريد اختباره، كان حذرا جدا جدا في كلماته، بدأت بإرسال عدة رسائل صوتية فاطمئن قليلا وأزاح شخصيته المحترمة الوقورة بالتدريج وهو يضحك معي مرة ويمازحني مرة، بعد فترة قصيرة لمّح لي أنه يريد رؤيتي، فأرسلت له على الفور أكثر من صورة لي بأزياء قصيرة مختلفة.

تجرأ أكثر وأكثر وطلب صورا بمشاهد أكثر عري فكنت أحقق له نصف رغبته، أستمتع بتشوفه ولهفته، أدركت جيدا أن الرجل إذا ملك ترك. قال لي أنه يريد

مهاتفتي فقد اطمئن لي ووجدني رفيقة وحدته وونيسة دربة، كان يظنني غبية ولم أفهم ألاعيب الذكور بعد، أصبحت أشم الكذب من بين السطور وأمثّل دور البلهاء الحمقاء الساذجة، فقلت له أن الجميع حولي الآن ولا أقدر على ذلك، لكن بعد منتصف الليل يمكننا أن نتهاتف كما يحلو لنا وتبعت كلماتي بضحكات يملؤها الغنج والمكر فصدّق كلامي وو افقه وقال أنه سينتظرني الليلة، سمعت أنفاسه الملتهبة وقرأت أفكاره المتطرفة، أعجبت بمهاراتي التي أكتسبتها بمرور الوقت، لن أصبح شاة بريئة تشرد عن القطيع بإرادتها ليصطادها الذئب، بل سأذهب للذئب بنفسي ولن أمكنه من اصطيادي وأجري و أنا أتلذذ بسماع لهثاته.

وهكذا أصبحت أسامر هذا وأهاتف ذاك حتى مللت ولم تعد اللعبة تبهجني مثلما كانت في البداية، شعرت بأني عاهرة تعطي الجميع جسدها، وتكشفه لهم دون فائدة، بل العاهرة أفضل مني لأنها تستفيد من ذلك ماديا، أما أنا فلا فائدة مما أفعل.

لم يسألني شخص واحد لماذا أفعل ذلك؟ لم ينصحني واحد منهم بالعفة والطهر بعد رؤيته لي و أنا أنجذب له بسرعة دون مقاومة، كل من تقرّب مني بالتأكيد تيقن من وضاعتي وسفالتي، وبالرغم من ذلك لم أجد من يسامرني ولو حتى بعد قضاء حاجته منّي، محاولا تذكيري بالثواب والعقاب والحلال والحرام.

ربما لو فعل أحدهم ذلك لارتميت في أحضانه باكية، ربما لأخبرته بمأساتي، وما جعلني أتحول من الطريق القويم إلى الطريق المشين، ربما لأحببته ووعدته بأن أتغير من أجله لكن لم يفعلها أحد، فعلتها أنا لنفسي وجئتك أخبرك بقصتي لتكتبها فربما أكون عبرة لمن ينتظرون قصصك ويحبون قلمك.

تذكر صاحبنا أنه تململ حينها بعدما انتهت الفتاة من سرد قصتها، فبالرغم من أنها قصة جديدة في هذا الزمن إلا أنها كانت غير مناسبة لنوعية القصص التي يكتبها وذوق القراء الذين يتابعونه، ربما لن تلقى رواجا أو ربما تلقى رواجا وضجة لكن بالسلب فينقلب حاله رأسا على عقب ويهجره متابعيه بعد عناء جمعهم.

أما الآن ففكر في أن يجعل من تلك القصة رواية، لكن ما الفائدة؟ النهاية ستكون متوقعة بالنسبة للبداية، كما أن الكثير والكثير كتبوا وتطرقوا إلى هذه الحكايات والبعض بل والكثير أيضا عايشها والنبيه يستشف ذلك من تعليقاتهم وتلميحاتهم على المنشورات التي تحكي مثل هذه المشاكل والتجارب.

ما العمل الآن؟

لا شيء يستحق أن يكتب..

إن لم أضف جديدا فلن أكتب..

قال كل ذلك في سرّه وأسند يديه إلى مكتبه ووضع رأسه بينهما، شعر بحلمه يتبخر وكل شيء يضيع، المراسلات التي أجراها في خياله مع دور النشر، عناوين الأخبار التي ستتحدث عن روائي شاب ظهر فجأة وبأسلوبه العبقري سيغير تاريخ الرواية برمتها، حفلات التوقيع وتكالب المعجبون عليه للظفر بتوقيع بخطه على عجل كلاعبي الكرة والمشاهير أو الممثلون، مع أن هذه المواقف لم يرها تحدث مع الكتّاب من قبل. صحيح لماذا لا تحدث مثل هذه الضجة مع الكتّاب؟ فعلى الرغم من الكم الهائل من حفلات التوقيع والندوات الثقافية التي حضرها لم ير ذلك يحصل مع أي كاتب مهما كانت شهرته. تبخّر حلم زيادة متابعيه على منصات

التواصل الاجتماعي، تهليلهم وتكبيرهم على أتفه عباراته وأسخف نكاته، كل ذلك انسل من أحلامه رويدا رويدا.

ضرب الهواء بيمناه فارتطمت بدفتره وكتابين من أعلى صف كتبه الموضوع فوق المكتب وأسقطهم، لم يأبه بما وقع ولم يكلف نفسه رؤيته، دقائق ثقيلة مرت عليه وهو لا يفكر في شيء ولا يعرف شيء، أحس كأنه شمعة في لحظاتها الأخيرة نحو الانطفاء.

قام من فوق مكتبه خاويا متكاسلا منهمكا كأنه خسر للتو نزالا في إحدى المعارك الملحمية ولم يكتب له النصر، ارتمى على سريره ودفن رأسه بين وسادته ويده إلى أن أراحه عقله من هذا الصراع وسلّمه إلى النوم.

طوال اليوم التالي ولا شئ يشغله سوى الرواية، وحين يصيبه اليأس والإحباط يحاول عقله أن يشغله في أمر من أمور الحياة، يسرقه من لحظات الحزن والغضب التي تنتابه فجأة بسبب فشله وحديثه مع نفسه التي طالما تقلل من شأنه وتذكره بالكثير ممن هم أصغر منه عمرا وقد نجحوا في كتابة رواية لا بأس بها، كبداية مشوارهم الأدبي، ثم تحاول إقناعه فتقول ما المانع من كتابة رواية متواضعة؟ ليس مطلوبا منك أن تكتب رواية لم يكتبها أحد من السابقين، معظم فطاحلة الأدباء بدأوا حياتهم بروايات عادية بل وأقل من العادية، جميعهم كان سبب شهرتهم هي رواية واحدة فقط أو روايتان من وسط عشرات الروايات التي كتبوها والتي يمكن للهواة كتابتها أو كتابة مثلها بسهولة ويسر.

خلال هذا اليوم فكّر صاحبنا في كم هائل من الروايات التي باستطاعته كتابتها، أفكار تأتي ويطردها، أفكار تأتي وتستحوذ على تفكيره لبعض الوقت فيتذكر أنه قرأها من قبل في رواية ما، وأفكار جديدة تدهشه، تخطر على باله

فجأة، أحداثها جميلة، وقصتها ممتعة، لكنه لا يستطيع أن يكملها مهما حاول، ولا وقت في البداية في رواية غير مكتملة التفاصيل فمعرض الكتاب أو موسم معرض الكتاب قد شارف على البدء وعليه في القريب العاجل أن يشرع في كتابة رواية ما، أن يكون ملما بتفاصيلها من بدايتها إلى نهايتها أو على الأقل ملما بجزء كبير منها قبل البداية فيها.

فجأة طرأت على ذهنه فكرة جهنمية جعلته يرقص فرحا من الداخل والخارج، لماذا لا يكتب روايات جيب أو قصص قصيرة للأطفال مثل التي نشأ وترعرع عليها كل أبناء جيله؟ هذا النوع من الكتابة لم يتطرق إليه أحد في العصر الحالي، يمكنه إعادة بعثه من جديد كالبارودي حين أسس مدرسة البعث والإحياء مثلا، النشء الجديد سيأخذها وسيلة للتطرّق إلى عالم القراءة وربما الشباب سيأخذونها وسيلة للعودة إلى الماضي بلحظاته الجميلة وذكرياته المنسية، نعم يمكنه ذلك.

فكرة جميلة وعبقرية والحمد لله أنه لم يفكر فيها أحد من كتاب العصر الحديث، قال يحدث نفسه، وحتى إن فشلت قصتي الأولى فعلى الأقل ستلقي رواجا بين الأوساط الأدبية وهذا يكفيني، ثم لماذا التشاؤم؟ ستنجح إن شاء الله وأكتب عدة قصص مثلها متشابهة، أو ربما تكون سلسلة لا تنتهي من الأحداث والمغامرات كالمغامرون الخمسة وينتظرها الكبير قبل الصغير.

ابتسم ابتسامة رضا وكل هذا الأفكار تتقافز في عقله، شعر فجأة أن الحياة أصبح لها طعم ولون، على عكس ما كانت منذ دقائق قليلة.

اتجه لمكتبه على الفوروفتح صفحة جديدة وراح يكتب..

وقبل أن يكتب فكر في كتابة مقدمة، لكنه ألغى الفكرة، فمثل هذا النوع من القصص على ما يتذكر لا يحتاج إلى مقدمة ولم ير له مقدمة من قبل، فكاتبها يدخل في التفاصيل مباشرة وربما هذا ما كان يجذبه حين كان طفلا هو وغيره من الأطفال.

في إحدى القرى الصغيرة كانت هناك عائلة فقيرة مكونة من أب وأم وشاب، أكمل الشاب عامه الرابع والعشرون منذ أيام، الأب يخرج مبكرا برفقه ابنه للعمل فقد كان حطابا، يجمعا الحطب ثم يبيعاه في السوق ويشتريا بثمنه ما يكفيهم بالكاد ليسد احتياجاتهم لآخر اليوم.

مهنة صعبة لا تدر عليهم المال الكافي ليعيشوا حياة متوسطة مثلما تعيشها باقي الأسر، المهنة لم تعجب الشاب الذي يطمح دائما أن يصبح من الأغنياء ويسكن في قصوركما يسكن الأمراء والملوك.

فكّر ليالي و أيام قبل أن يتخذ خطوة جديدة نحو مستقبل أفضل، ألا وهي الذهاب والعمل في المدينة حيث الخير الوفير، أخبر الشاب والديه بقراره فلم يمانعاه أو حتى يناقشاه، ماذا يريد الأب سوى أن يرى ابنه أفضل منه مئة مرة، بل و أفضل الناس جميعا؟

أخذ الابن ما يحتاجه من زاد يكفيه أيام السفر وسار في الحقول الخصبة والأراضي الشاسعة قاصدا المدينة وهو يحلم بتحقيق حلمه والعودة لقريته لانتشال والديه من الفقر المدقع الذي يعيشان فيه.

ساريوم وليلة وهو يتوقف بين الحين والآخر يلتقط أنفاسه أو يخيم ليستريح من وعثاء السفر، وفي الليلة الأخيرة وقبل وصوله للمدينة وبينما هو يمشي في الأحراش وجد عجوزا جالسا تحت شجرة، أشعث الشعر، ذقنه متدلية غير مشذبة كأنما تعيش فيها آلاف العناكب، مهترئ الملابس نحيل البدن نتن الرائحة، من النظرة الأولى يظن الرائي أنه شحاذ أو مجذوب ضل طريقه، لا سكن له، يعيش في الطرقات ويتغذى على الثمار المتساقطة.

ويبدو أن العجوز لم ينتبه للشاب إلا حين اقترب منه وسأله بلطف عارضا عليه المساعدة من باب الكرم، "هل لك حاجة فأقضيها لك يا عم؟" انتفض العجوز وكأنه استيقظ من نوم طويل أو فاق من سبات عميق، شاب في مقتبل العمر مكتمل البنيان في عينيه ذكاء متّقد، وقف العجوز وهو ينفض الغبار المتعلق بجلبابه وقال "حقا إنك شاب طيب ذو أصل كريم، أنا، أنا أريد منك مساعدة صغيرة ثم توقف عن الكلام للحظات والتمعت عيناه وهو يكمل وسأعطيك ثمنها فوق ما تستطيع حمله من ذهب وفضة وأحجار كريمة"

نظر الشاب للعجوز من أعلى لأسفل باستنكار وتساءل في نفسه "لو يملك العجوز ما يقول لما بقي هنا، هو مجذوب حتما وهذا أقرب الاحتمالات سأجاريه في الكلام فأنا أسير منذ فترة طويلة ولم أحدّث أحد، بالطبع، كيف أساعدك يا عم؟"

تهللت ملامح العجوز بموافقة الشاب وابتسم كطفل صغير وقال له تعال معي، ثم سار العجوز والشاب خلفه نادما على موافقته على طلب العجوز الذي سيؤخر رحلته ويعطّل سفريّته لكنه لم يقدر على الرجوع في كلامه بعد أن وافق.

سارا فترة طويلة والعجوز يمشي أمامه بهمة ونشاط كأنه شاب مثله تماما، لا يفرّقه عنه سوى شعره الأبيض ووجهه المكدس بالأخاديد، سارا إلى أن وصلا أخيرا

إلى جبل صغير تعلوه فوهة كهف مظلم، لوهلة فكّر الشاب في أن هذا العجوز ربما يكون قاتلا محترفا، استطاع خداعة وجذبه إلى هذا المكان النائي ليقتله، لكن كيف سيقتله بجسده الهزيل هذا وبظهره المنحني؟، وعلى الرغم من ضعف العجوز الواضح إلا أن الشاب بدأ الخوف يتسلل إليه وراح يحتاط ويحذر من أي هجوم مفاجئ قد يحدث في أية لحظة.

ولكن طريقة مشي العجوز وهمته في بلوغ الكهف أراح الشاب قليلا من هذه الهواجس، كان يمشي سعيدا كطفل يريد أن يطلع أباه على شئ جديد اكتشفه، هنالك شئ ما يريده العجوز من هذا الكهف ولا يستطيع فعله لضعف قوته وضمور عضلاته، هكذا حاول الشاب إقناع نفسه ليزيل عنها الخوف والقلق.

صعد العجوز الجبل بهمة ونشاط لا يليقان بهيئته والشاب من خلفه، مشيا حتى وصلا إلى فوهة كهف، وهنا توقف العجوز ناظرا للشاب وهو يبتسم ليطمئنه وقال "طبعا أنت تظنني مجنونا، أقدر لك ذلك، لكن أقسم لك أني سأجعلك أغنى الناس، هنا كنز مدفون ولا أستطيع إخراجه إلا بمساعدة شاب قوي مثلك، وحظك الطيب أوقعك في طريقي" لم ينطق الشاب أو يعلق.

دخل العجوز الكهف والشاب يمشي خلفه كالمسحور، وعلى الضوء الخافت التي ترسله الشمس توجه العجوز إلى ركن من أركان الكهف والتقط قطعة خشبية على شكل قضيب ملفوفة حول إحدى ناحيتها قطعة قماش مبللة بالزيت وأشعلها وأكمل طريقه داخل الكهف.

كل هذا والشاب مصدوم مما يرى، يبدو أن هذا العجوز يعرف بالتأكيد ما يفعل فهذه ليست طريقة شخص يأتي هنا للمرة الأولى، هو يعلم المكان جيدا.

على ضوء الشعلة المتراقص رأى الشاب رسومات بدائية على جدران الكهف، رسومات أشبه ما تكون لحيوانات أسطورية سمع عنها في القصص القديمة، حيوانات متفاوتة الأحجام مختلفة الهيئات، الغريب أنه لم ير نقشا واحدا لإنسان، كلها كانت لحيوانات وكائنات غريبة.

في نهاية الكهف نظر العجوز إلى الشاب وقال له "توقف هنا ولا تتحرك" فامتثل الشاب لأمر العجوز الذي راح يمشي بمحاذاة الحائط كأن هناك شئ ما في المنتصف يخشى العجوز الاصطدام به أو الوقوع فيه، التقط قطعة خشبية أخرى وأشعلها من الأولى ورجع للشاب من حيث جاء، هنا الإضاءة أصبحت أقوى، وعلى ضوء الشعلتين الذين سلطهما العجوز نحو الأرض رأى الشاب حفرة أشبه بالبئر الصغير، اقترب العجوز من الحفرة وهو يشير للشاب برأسه أن يتبعه.

اقترب الاثنان وجثا العجوز على ركبتيه موجها الشعلتين لها وهو يقول للشاب" انظر". لم يكن الشاب ينتظر كلام العجوز إذ كان الفضول قد بلغ عنده مبلغه فانحنى بدوره وراح ينظر للحفرة. حفرة قطرها حوالي مترين أو أكثر بقليل، عميقة عمق غير معلوم فالإضاءة لم تكشفه بعد، وبعد لحظات من التفكير حول هذا الحفرة أو البئر الصغيرة وما تحويه وما يريده ذلك العجوز منه، هل سيقدمه كقربان بشري لإرضاء هذه الكائنات التي رآها قبل قليل على الجدران؟ هل أنا أول قربان أم هناك قرابين قبلي؟ لكن لو هناك قرابين لشممت على الأقل رائحتهم النتنة تنبعث من الأسفل، المكان نظف جدا وخالي من أي رائحة غريبة تثير أي مخاوف، هكذا قال الشاب في نفسه.

قطع العجوز على الشاب سلسلة تساؤلاته وقال:

"اسمعني يا بني، أقسم لك أنك لن تندم على مجيئك معي اليوم، بل ستعتبر هذا اليوم هو يوم سعدك وهناك، وستتذكرني بالخير دائما، و أقسم لك بكل مقدس أنه لن يصيبك مكروه ولن تخدش خدشا واحدا إن استمعت إلى كلامي بحرص وطبقته بدقة"

لم يتحدث الشاب لكن نظراته كانت تقول للعجوز" نعم، أكمل، ماذا بعد؟" فتابع العجوز:

"سأربطك بحبل وتنزل إلى هذا البئر الصغير، لا تقلق فهو ليس بالبئر العميق، قالها العجوز وهو يخرج حبلا متوسط الطول من حقيبة قماشية معلقة في كتفه رآها الشاب للمرة الأولى ولم يلحظها من قبل، ربما لأنه تشبه ملابسه، تابع العجوز ستربط الحبل في خصرك وسأمسك أنا بالطرف الآخر وسأنزلك رويدا رويدا بعد أن تأخذ معك هذه الشعلة، وأعطى الشعلة للشاب الذي يستمع لحديثه مشدوها غير مصدق ما يقال، وتابع العجوز لا تقلق يمكنني إنزالك بسهولة دون أن يصيبك مكروه يا بني، فأنا على الرغم من شيبتي إلا أنني لازلت أملك بعضا من قوى شبابي، ستنزل إلى الأسفل وتفك الحبل عن خصرك، وستجد نفسك في نفق مضاء بالمشاعل على جانبيه، تحرك في النفق لكن لا تفتح أي باب من الأبواب الثلاثة التي ستجدها على يمينك، أتسمعني؟ إياك أن يأخذك الفضول وتفتح أي باب، قالها العجوز وهو يشير للشاب بسبابته بسبباته مهددا وقد تغيرت ملامح وجهه للجد، بلع الشاب ريقه وهو يسمع تحذيرات العجوز، يبدو أن الأمر جد خطير، أكمل العجوز لا تفتح أي باب حتى تصل إلى نهاية الممر وهناك ستجد صندوقا صغيرا وهذا مفتاحه، قالها وأخرج قطعة من القماش ملفوفة ومربوطة

بخيط صغير وأخرج منها مفتاحا نحاسيا ثقيلا بالنسبة إلى حجمه الصغير وأعطاه للشاب وهو يقول ستفتح الصندوق بهذا المفتاح وستجد داخله علبة صغيرة خذها وبعد ذلك يمكن أن تدخل أي غرفة تشاء، ففي الغرفة الأولى ستجد الفضة وفي الثانية ستجد الذهب وفي الثالثة ستجد اللؤلؤ والألماس وغيرهم من الأحجار الكريمة، خذ كل ما يمكنك حمله وعد إلى أسفل البئر واربط الحبل في خصرك واجذبه جذبة خفيفة لأعلم أنك قد انتهيت وسأقوم برفعك، ولا تنس العلبة، أتسمعني؟ لا تنس العلبة.

ثم تابع العجوز، لكن قبل أن أنسى، في كل غرفة ستدخلها ستجد فيها وحشا رابضا في ركن من أركانها، إياك ثم إياك أن تخفي العلبة التي ستأخذها، يجب أن تكون في يدك دائما كي يراها الوحش وإلا سيفترسك"

قصة غريبة وكلمات أغرب لا يصدقها عاقل، لو قالها العجوز في بداية اللقاء لما صدقه الشاب ولمضى في طريقه وربما ذلك هو السبب الذي جعل العجوز يأخذه حتى البئر ويجعله يرى كل شئ بعينيه ومن ثم يقص عليه القصة كاملة، فهذه كلمات يمكن فقط أن تكون قصة قصيرة جميلة ما قبل النوم للأطفال.

وعلى الرغم من غرابة كل ما يحدث إلا أن المشاهد والأشياء التي رآها الشاب ولمعة عين العجوز وهو يحكي كلها تؤكد صدق قصته، فلم يجد مفرا من الرفض، فلا ضرر من التجربة، وإن كان هناك ضرر فسيكون قد أراحه من رحلته هذه ورحمه من فشله في المدينة، فربما بعد وصوله هناك لا يجد فرصة عمل ويتحول من فقر إلى فقر، لا ضرر من المحاولة، قالها الشاب في نفسه مطمئنا لها ممنيا نفسه بالكنز الذي ينتظره بالأسفل.

لكن مهلا توقف الشاب عن التفكير للحظات وسأل العجوز "هل سنقتسم الحصة مناصفة؟ أم ستقول لي هذا كنزي ولن تعطيني منه سوى القليل؟ هذا لو افترضنا وجوده من الأساس!"

ابتسم العجوز حتى بانت نواجذه وهو يقول للشاب كل ما ستخرجه من هذه الحفرة وكل ما تستطيع حمله من جواهر فهو ملك لك، لن آخذ منه قطعة واحدة وأعدك بذلك، كل ما أريده هو تلك العلبة الصغيرة وفقط"

نظر الشاب إلى العجوز بريبة وشك غير مصدق، كيف لن يأخذ شيئا من الكنز وسيكتفي فقط بالعلبة؟ هل لها مميزات أخرى غير الحماية من الكائنات المفترسة؟ هل سيأخذها مثلا وينزل من بعدي ليأخذ هو الآخر ما يريد؟ لكن لو كان سيفعل ذلك لما احتاج لي من البداية، يبدو أن هناك سرا آخر لها.

حين رأى العجوز نظرات الشاب المتسائلة قطع عليه تساؤلاته وقال:

"هذه العلبة هي إرث أجدادي ولا أريد غيرها، فكما تعلم يا بني أنا رجل عجوز رأيت من الدنيا الكثير ولم يبق لي فيها إلا القليل والذهب والمجوهرات لا حاجة لي بهما، أريد العلبة وفقط"

صدق الشاب كلمات العجوز أو حاول تصديقها فلا وقت لديه لتحليل مبررات العجوز إن كانت صادقة أم كاذبة، كل همه الآن هو التركيز على ما هو مقدم عليه والرحلة العجيبة التي بانتظاره في الأسفل إن كان العجوز محقا طبعا.

وعلى الفور عدّل من هيئته ووضع رحاله تحت الحائط فقام العجوز بدوره هو الآخر وأعطي الحبل للشاب وسعادة الدنيا كلها تتقافز في عينيه، ربط الشاب الحبل حول خصره بإحكام ووضع كلتا يديه على حافة البئر الصغير ونزل بجسده

رويدا رويدا داخله، أمسك الشعلة التي مدّها له العجوز بيسراه وحاول قد استطاعته التحامل على يده اليمني الموجودة على حافة البئر، ونظر للعجوز نظره معناها هل أنت متأكد إن بإمكانك تحمل وزني؟، فرد عليه العجوز بنظرة مطمئنة لا تقلق.

ترك الشاب جسده ليتدلى داخل البئر وفي اللحظة الأولى التي ترك فيها يده شعر بألم يحز خصره بسبب الحبل، ألم متوسط يمكنه تحمله، تمنى لو كان الحبل غليظا أكثر، ثم صبّر نفسه بأن الرحلة بضعة أمتار فحسب مثلما قال العجوز.

راح جسده يتدلى بالتدريج والعجوز يترك الحبل شيئا فشيئا، وعلى ضوء الشعلة شاهد الشاب جدران البئر من الداخل، وراح يتأملها، جدران سوداء صمّاء لا وجود لأي رسومات عليها، ربما أصحاب الكنز الأصليين تعمّدوا ذلك بعد دفن كنزهم كي لا يستدل عليه أحد ممن سيحاولون نبش المكان والحفر فيه.

هكذا فكّر الشاب أو هكذا استنتج، حاول تسليط اللهب إلى الأسفل لعله يرى المسافة المتبقية لكنه لم ير شيئا، كان الظلام دامسا وضوء الشعلة لا يكفى لإزالته، وأخيرا اصطدمت قدماه بالأرض وهبط بكامل جسده وراح يتخلص من الحبل بسرعة وهو يحك مكانه في جسده ويتخيل أنه أصبح بلون الدم.

الممر الموجود في البئر محفور بزاوية أفقية لا شئ بعدها، شّكلت مع البئر زاوية قائمة من الأعلى، ومن بعيد شاهد إنارة على جانبي الممر، تقدم ببطء وهو يرسل شعاع الشعلة إلى الأمام تارة وعلى جانبي الممر تارة أخرى، ثم فجأة ظهرت أمامه نفس الأشكال التي رآها على جانبي الكهف، لكنها هذه المرة كانت مرعبة بشكل كبير، رؤوس حيوانات أشبه بالتنانين الطائرة، ثعالب وكلاب، ثعابين وضباع

وحيوانات أخرى تنظر له في غضب وكأنه مجيئه دنس سباتها المقدّس، الغريب أيضا أن الرسومات كانت تنظر في عينية مباشرة أو كأن جثث أصحابها مدفونة في الحائط ولا يزالون على قيد الحياة، ولا تظهر من أجسادهم سوى رؤوسهم وعيونهم التي تحملق فيه وتخيفه.

بدأ الخوف يتسرب إليه وشعر برعشة خفيفة تسري أسفل جسده وبرغبة عارمة في الهروب من ذلك المكان المخيف والذي ربما سيكون مثواه الأخير.

وفجأة قال يحدّث نفسه ماذا سيحدث إن فشلت؟ أو خرجت من هذه الجدران إحدى هذه الحيوانات المخيفة والتهمني؟ حتى لو صرخت واستنجدت بهذا العجوز فلن ينجدني وحتى لو أفلت من الحيوان وطرت لأسفل البئر، قبل أن أربط الحبل في خصري ويرفعني العجوز فسيكون هذا المخلوق قد التهمني.

هل جاء العجوز بأحد قبلي إلى هنا وفشل؟ حتى إن فشل فأين جثته؟ يبدو أن الوحوش عندما تخرج تلتهمه بعظامه، هل أنا أول من يدخل هنا؟

بعدها شعر أن هذه الأسئلة تعيقه أكثر مما تساعده، فقرر نفضها عن رأسه وهو يلوح بيده قائلا بصوت مسموع، حتى إن جاء المئات قبلي إلى هنا وهذا وارد فلن أفشل مثلما فشلوا، وراح يفكر في الكنز الثمين الذي سيحصل عليه بعد أن تأكد من صدق العجوز بعد كل ما رآه.

مشى بعد أن توقف للحظات وهو يسأل نفسه هذا الأسئلة حتى وصل إلى الباب الأول، باب خشبي عتيق بني اللون، لكنه لا يزال محتفظا بلمعانه وبريقه، نظيف جدا كأن لم يلمسه أحد من قبل، منقوش عليه رأس حيوان أشبه بالذئب أو هو نوع من أنواع الذئاب التي لا يعرفها، قرّب الشعلة ليتمكن من رؤية ملامح

هذا الحيوان المفترس بشكل أوضح، ذئب أسود اللون بعينين حمراوين ملتهبين كأنهما قطعتين من النار، تنظران أمامهما بترقب ممزوج بالشراسة، يشعر الناظر إليهما أنه ضحية هذا الذئب إذ تجرأ وفتح الباب.

تذّكر نصيحة العجوز وراح يتكرر صداها في أذنه، لا تفتح الباب حتى تملك العلبة الموضوعة داخل الصندوق، تحسس مفتاح الصندوق الذي وضعه في جيبه قبل أن ينزل البئر، ملمس المفتاح بعث فيه بعض الطمأنينة والراحة، الغريب أنه لم يعد يشعر بالخوف من نظرات ذلك الذئب ثم أكمل طريقه عبر الممر وكأنه يتمشى داخل أحد الحقول الخضراء.

أكمل طريقه وهو يدندن بكلمات أغنية ألفها في التو واللحظة كما جعل لها لحنا و إيقاعا يناسبانها، كل هذا في محاولة لطرد مخاوفه وشغل عقله قليلا.

الرسومات تتكرر بنفس نظراتها، لم يعد يهتم بما هو موجود على جانبي الممر، فوجّه شعلته للأمام مباشرة حتى وصل إلى الباب الثاني.

كان أكبر من الباب الأول نسبيا لكنه بنفس اللون والزخارف، وحين اقترب منه وقرّب الشعلة ليرى الرسمة الموجودة عليه وجدها لحصان مجنح، يبدو جميلا جدا في هيئته، هادئ الملامح يتمنى الناظر إليه أن يتخذه رفيقا في رحلاته أو صديقا بعكس كل الرسومات التي رآها منذ دخوله هذا المكان المخيف، عبث بذاكرته محاولا تذكر أي نقش لهذا الحصان في الأعلى فلم يجد.

تحسس النقش بيده، اطمئن له على عكس كل النقوش التي رآها من قبل، تمنى أن يمتلك مثل هذا الحصان الأسطوري ليتباهى به أمام أهل قريته بل وسيتباهى به أمام الملوك والأمراء.

لكنه فاق من أحلامه وهو يؤنب نفسه على كل هذا الوقت الذي قضاه في التأملات والأحلام، يجب أن يسرع كي لا يظن العجوز أن مكروها أصابه فيتركه ويعود للبحث عن شاب جديد.

مجرد أن خطرت في باله هذه الفكرة شعر بالرعب وأكمل المشي متجها إلى آخر الممر.

وصل إلى الصندوق وعلى يمينه تفاجأ بوجود بوابة ضخمة تشبه بوابات القلاع الصغيرة، وفي منتصفها وجد رسمة لتنين هائج يقف على قدميه الخلفيتين وهو يحاول التملص بغضب من السلاسل الموضوعة في قدمية وفمه، وعلى جانبيه وقف بعض الجنود وهم يلوّحون له بالحراب في محاولة لتهدئته أو ترويضه دون فائدة.

نظر للرسمة للحظات ولمح الصندوق موضوعا بجوار الباب في ركن الحائط ثم جثا على ركبتيه قبالته، صندوق أسود مزركش بخطوط ذهبية على كل أطرافه، ومنقوش على واجهته من الأعلى رسومات لذئب بعيون حمراء وحصان مجنح وتنين، متراصين بجوار بعضهم البعض بالترتيب.

لم يفهم الشاب المغزى من هذه الرسومات وظنها مثلها مثل الموجودة على الأبواب، أخرج المفتاح من جيبه ووضعه في الصندوق وأداره ببطء مرتين ثم الثالثة، وفي كل مرة يسمع صوت التروس وهي تصطدم ببعضها البعض من الداخل.

فتح الصندوق ببطء والفضول يقتله على الرغم من معرفته السابقة بأنه سيجد علبة صغيرة داخله، إلا أن الفضول لم يغب عنه.

وجد علبة صغيرة طبق الأصل من الصندوق وكأنها نسخة منه ولكن على شكل مصغّر، العلبة عليها بعض النقوش الصغيرة التي لم يتبينها، أو لم يرد تبينها فهدر وقت أكثر من الذي أهدره.

أمسكها وعاد إلى الباب الأول، وقف أمامه والذئب لا يزال ينظر نحوه بغضب، مد يده نحو المقبض ببطء وهو يبتلع ريقه الذي جف. رفع يده الأخرى ووضعها على قلبه ليهدئ تلك الضربات المتسارعة الأشبه بطبول حرب ستبدأ بعد لحظات، فتح الباب بيمينه ممسكا الشعلة بيسراه وفور أن دخل أسرع بإخراج العلبة من جيبه وهو يوجهها في كل الاتجاهات مخافة أي هجوم مفاجئ قد يحدث.

على ضوء الشعلة رأى أجمل منظر رآه في حياته، غرفة مملوءة بالفضة حتى آخرها. أكوام من الفضة على شكل خواتم وسلاسل وأواني وأكواب وغيرهم من المصنوعات، وبينما هو على هذه الحالة من الانبهار والدهشة وجد بقعتين حمراوين بجواره مباشرة، قفز للخلف من شدة الرعب ووجه الشعلة والعلبة نحوهما في نفس التوقيت، فوجده واقفا بجواره مستعدا للهجوم عليه، ذئب ضخم كثيف الشعر ممتلئ الجسد كأنه يأكل في كل يوم خروف بالكامل.

نظر الذئب للعبة الموجهة إليه، هدأت ملامحه، ثم عاد ليجلس في مكانه في ركن الحجرة، كانت خطواته توحي وكأنه تمثال تحرك للتو وعاد إلى هيئته.

التقط الشاب أنفاسه المتسارعة ثم توجه نحو الفضة وضربات قلبه تعود لرتمها الطبيعي تدريجيا وراح يعبئ منها جيوب بنطاله وسترته، أخذ كل ما يستطيع حمله، وتمنى لو أن معه حقيبة كبيرة ليملأها، ثم عاد أدراجه خارجا من الغرفة وهو لا يزال موجها العلبة نحو الذئب كنوع من الحيطة والحذر مع أن الذئب منذ أن رأى العلبة، وعاد لموضعه لم يأبه للشاب ولا بما يفعله.

خرج من الحجرة الأولى سعيدا غير مصدق ما حدث للتو، العلبة هي كلمة السر التي نجى بها من هذا الحيوان.

توجه للحجرة الثانية وهو مطمئن كأكثر ما يكون الاطمئنان، وقف على بابها وهو يطالع الحصان المجنح الجميل، فتح الباب ودخل، وعلى ضوء الشعلة لمعت أكوام الذهب التي تعبئ الغرفة، لكن الشاب لم يأبه بها إذ أخذ يبحث في أركان الحجرة عن الحصان كي لا يرعبه هو الآخر، ويجده و اقفا بجواره مثلما وجد الذئب منذ قليل.

صدق حدسه إذ رأى الحصان في إحدى أركان الحجرة كأنه تمثال بعثت فيه الروح وراح يتحرك ويضرب حو افره بالأرض مطأطئا رأسه تعبيرا عن غضبه لرؤيته لذلك الغريب واستعداده للهجوم عليه، أسرع الشاب بتوجيه العلبة وبجوارها الشعلة

في مرمى بصر الحصان والذي هدأت ملامحه وعاد للخلف خطوتين كان قد تقدمهم قبل رؤية العلبة، قال الشاب بعد أن أنتهى الموقف "لا تجزع يا صديقي فالعلبة معي، يمكنك العودة كما كنت" وهذا ما فعله الحصان بالفعل.

تقدم نحو أكوام الذهب مبهورا أكثر من ذي قبل، وقبل أن يفكر راح يفرغ ما في جيوبه من فضه ويضع مكانه ذهبا حتى امتلأت أكثر من ذي قبل، ثم خرج من الغرفة حالما بمستقبل مشرق ينتظره، سعيدا بحلمه الذي تحقق دون أدنى صعوبة.

فكر الشاب بعد كل ما أخذ في عدم التوجه للحجرة الثالثة، يكفيه ما جمعه من ذهب يجعله من أثرى الأثرياء - على حد معلوماته - لكن غلبه الطمع ومن بعده الفضول ليرى الغرفة الثالثة وحارسها وما تحويه من كنوز.

توجه للغرفة الثالثة ووقف بجسده الضئيل أمام بابها الضخم المهيب، رأى التنين والجنود كما رآهم من قبل، فتح الباب ببطء، لم يدخل بكامل جسده و إنما برأسه فقط وهو يبحث بالشعلة هنا وهناك عن مكان هذا التنين.

لم يدخل لأنه يعلم أن التنين لن يحتاج أكثر من ثانية لينقض عليه حتى قبل أن يرى العلبة، فهو بالتأكيد أسرع و أقوى من الذئب والحصان بعشرات المرات.

لكنه وجد التنين رابضا في ركن من أركان الغرفة، التقت عيونهما لوهلة صرخ فيها التنين وأصدر صوتا اهتزت له الأركان ومعها أوصال الشاب الذي أسرع ومد يده بالعلبة تجاهه وهو لا يزال نصف جسده داخل الغرفة تحسبا لأي هجوم ونصفه الآخر خارجها.

ما إن رأى التنين العلبة حتى توقف عن الصراخ وهدأ غضبه، لكن ملامحه لم تلن بل ظل غاضبا ولكنه لم يعد ينظر إلى الشاب بل ينظر هنا وهناك كأن الشياطين تلاعبه وتحاول استفزازه.

خطر في بال الشاب أن يكتفي بهذا القدر ولا يغامر بالدخول لحجرة هذا التنين المجنون والذي ربما يفتك به في أية لحظه وعليه أن يقنع بما جمع.

لكن قبل خروجه وجه الشعلة لمنتصف الحجرة فوجد صندوقا ضخما مفتوحا وبداخله تلمع ألوان خضراء وحمراء وصفراء وزرقاء وغيرها في منظر يسرق اللب، تساءل في نفسه أهذا هو اللؤلؤ والمرجان والأحجار الكريمة التي

سمعت عنها؟ ربما هي غالية الثمن ولهذا وضعت في صندوق وليس على الأرض كسابقاتها من الذهب والفضة.

احتار في أمره للحظات ثم تسلل إليه الطمع، فكر وفكر لكن الطمع كان أُقوى منه فدخل بكامل جسده والشعلة والعلبة ناحية التنين غير المهتم بتواجد هذا الغريب.

مشى الشاب بخطوات وئيدة والخوف ينسل منه كلما تقدم خطوة، وما إن وصل إلى الصندوق هاله المنظر البديع وسرق عقله فقرر أن يأخذ بعضا منها، أفرغ أكبر جيوبه من الذهب وملأه بهذه الأشياء الملونة وهو ينظر بطرف عينه بين الحين والآخر ناحية التنين فيجده غير مكترث بأمره، ملأ أكبر جيوبه وخرج يجري من الغرفة.

توجه إلى أسفل البئر خارجا من الممر وهو يلهث ويتلفت أسفل قدميه ليتأكد من عدم سقوط أي شئ منه حتى وصل إلى أسفل البئر مباشرة، الحبل لا يزال متدليا، أمسك به وهو يتذكّر الألم الذي شعر به في المرة السابقة والحز الذي مازالت آثاره يشعر بها حول وسطه، والألم الأشد الذي سيشعر به الآن حين يُسحب للأعلى لكن بأس، يمكنه أن يفعل ذلك ألف مرة في اليوم إن كان هذا حصاده.

ربط الحبل حول خصره، شدّه مرتين برفق ليعلم العجوز أنه جاهز، ثواني وتم شد الحبل ومعه الشاب، "هذا العجوز قوي حقا مثلما أخبرني" قالها في نفسه.

راح يصعد ببطء وما إن ظهر في فوهة البئر سأله العجوز وهو يحاول جاهدا رفعه المسافة القليلة المتبقية " هل جلبت العلبة معك؟"

أومأ الشاب برأسه أي نعم وعلامات الألم تكسو وجهه، وما إن وضع يده على حافة البئر وهو يحاول الصعود رفع قدمه اليمنى فسقطت من جيب بنطاله قطعة ذهبية وياقوتتين، لمحهما بطرف عينه بحسرة وهو لا يستطع الإمساك بهما، اكتفى بالنظر في ألم وهم يسقطون في الظلام.

قال العجوز بعد أن رآهم بدوره "جميل أنها لم تكن العلبة هي التي سقطت وإلا ركلتك للحاق بها"

شعر الشاب بالحنق من كلمات العجوز وخاصة لركلتك للحاق بها، فقال وهو يقف على قدميه وينفض الغبار عن ركبتيه وأطراف أكمامه "ما هو سر تلك العلبة ولماذا أنت مهتم بها إلى هذا الحد؟ أليس من العجيب والغريب أيضا أن تتغافل عن الكم الهائل من الثروة الموجودة بالأسفل وتطلب مجرّد علبة فقط؟"

رد عليه العجوز محاولا تمالك أعصابه "هذا ليس من شأنك، أعطني العلبة وخذ ما أخرجته وارحل من هنا" قال جملته الأخيرة بتعجرف.

"إن كنت تريد العلبة للدخول إلى الغرف والحماية من بطش وحوشها لما احتجت لي من البداية، كيف ستتمكن النزول؟ وإن طلبت مني مشاطرة الكنز نصفين بيني وبينك لأعطيتك النصف بنفس راضية والعلبة زيادة على نصفك، ثم لماذا..

قاطعه العجوز بنبرة أشبه بالصراخ" هذا ليس من شأنك، أعطني العلبة وارحل من هنا قبل أن يحدث مالا طاقة لك به"

أحس الشاب بالإهانة للمرة الثانية، فنظر للعجوز وهو يقترب منه وضيّق عينيه بعد أن سرت في جسده جرأة عارمة لم يعرف مصدرها وقال "لن أعطيك العلبة حتى تخبرني سرها"

هنا استشاط العجوز غضبا وهجم على الشاب في محاولة بائسة واضعا يده على جيوب ملابسه المنتفخة لأخذ العلبة بالقوة، لكن حركته كانت بطيئة ومتوقعة من الشاب فتفاداها بسهولة وكاد العجوز أن يسقط في البئر لولا أن تمالك توازنه في اللحظة الأخيرة فازداد غضبا على غضب، وحين أدار وجهه اتسعت عينا الشاب في خوف وعدم تصديق، على ضوء الشعلة التي يمسكها العجوز رأى الشاب ملامحه تتغير، احمرت عيناه وبرز فكّه واسودت بشرته ونما شعره، كل هذا في ثوانٍ كأنه بشري تحوّل إلى مستذئب، ثم صرخ العجوز صرخة مدوية اهتزت لها أركان الكهف، شدة الصرخة جعلت الشاب يتراجع خطوات إلى الخلف ثم يولي هاربا مطلقا ساقيه للريح.

جرى الشاب بكل ما يستطيع من سرعة وهو ينظر خلفه مرة ويحاول وضع يديه على جيوبه مرة أخرى كي لا يسقط منه شئ، كان يرى العجوز يبتعد ويبتعد فهو لا يستطيع مجاراة شاب مثله في السرعة، جرى الشاب وجرى حتى اختفى العجوز من خلفه تماما.

أكمل الجري في انحناءات بشكل عشوائي كي يضلل العجوز إن كان لا يزال يجري خلفه، ثم توقف أخيرا تحت شجرة يلتقط أنفاسه المتسارعة غير مصدق أنه نجا بأعجوبة.

فكر في العودة إلى أهله محملا بكل هذه الخيرات لكن أهل القرية لن يتركوه وشأنه، وسيتردد صدى قصته واسمه هنا وهناك، وبالتأكيد سيرسل الأمير

الخبيث في طلبه وربما يسلبه كل ثروته فقرر الذهاب إلى المدينة والمكوث هناك بعض الشهور ثم يعود للقرية من جديد.

حياة المدينة تختلف عن حياة القرى، لا أحد يعرف أحد إلا قليل، الناس تعمل هنا وهناك كالماكينات دون كلل أو تعب، الغريب أنه وجد في المدينة فقراء أكثر فقرا من فقراء قريته، لم يصدق ذلك، تغيّرت نظرته للمدينة تماما لكنه نسي كل هذا بسهولة بعدما اشترى قصرا ضخما وارتدى أفخر الملابس وامتطى أجود الخيول، وراح يتقرّب من شرفاء المدينة و أثريائها بالهدايا و إقامة الحفلات.

ذاع صيت الشاب في أسابيع معدودة وراح الجميع يتقرب إليه ويتخذه صديقا، انغمس الشاب في الملذات، حفلة هنا وليلة سمر هناك، وهدايا لذوي المناصب والنفوذ وغيرهم.

قضى أياما سعيدة لم يرها من قبل، وتناول أطعمة لم يكن يعلم بوجودها في الطبيعة من الأساس، شهور ممتعة قضاها، عوضته عن كل سنين البؤس والحرمان التي عاشها، لكن بالتدريج تناقصت ثروته، رويدا رويدا، فقلّت معها حفلاته وأصدقائه، نفدت أحجاره الكريمة التي تفاجأ في أول الأمر أنها أغلى من الذهب مئات المرات وتمنى لو عبأ كل جيوبه منها حين و اتته الفرصة.

أشهر قليلة انتهى فيها كل شئ كأنه حلم جميل، باع ملابسه وخواتمه الثمينة وخيولة الجميلة، ثم باع القصر وسكن في إحدى الغرف مثله مثل أي فقير، ندم على تبذيره ولهوه ورجع إلى فقره من جديد، فالفقر يعرف أهله.

حاول طلب المساعدة من أصدقائه أو الذين كانوا أصدقائه، ذهب إليهم ليقترض منهم، بعضهم أقرضه والبعض الآخر تهرّب منه وادعى سفره خارج البلاد،

حتى الذين أقرضوه تهربوا منه في المرات التالية، فأصبح وحيدا فقيرا يجد ما يقتات منه ليوم و أيام لا يجد حتى قرر أن يبيع خاتمه المفضل بعد محاولات مع النفس لبيعه لكنها كانت ترفض باستمرار، الآن الجوع بلغ مبلغه، بطنه تقرصه، الصداع في رأسه يكاد يقسمها نصفين من شدة الجوع.

وضع يده أسفل سريره المتهالك حيث توجد حفرة صغيرة في جوف الخشب، تحسسها بيده فأمسك الخاتم وبجواره العلبة، هما كل ما تبقى له من ذكريات الكهف السحري الجميل، أخرجهما معا وأخذ ينظر إلى الخاتم الذي سيبيعه وتذكر حين جاء إلى المدينة حديثا وأعجبه لون أحد الأحجار الكريمة التي باعها فطلب من الصائغ أن يحوله إلى خاتم، وكان دائم التفاخر به حين يسمع عبارات المدح في الخاتم خاصة حين يقسم البعض ممن يفهمون في هذه الأمور أن هذا الخاتم مصنوع من حجر كريم نادر جدا.

تذكّر الشاب كل هذا فانسابت دمعة على خده حتى أنه نسي أمر الجوع، وضع الخاتم في يده ليطمئن به لبعض الدقائق الأخيرة قبل بيعه، كان قد خلعه وخبأه كي لا يلتفت إليه اللصوص في المنطقة فيقررون سرقته بعد قتل صاحبه.

مسح دمعته وأمسك بالعلبة، ذكّرته الرسومات عليها بالحيوانات العجيبة التي رآها وبالعجوز الذي لم يعطها له، ركز نظره في الحصان المجنح الموجود في منتصف الرسومات الثلاث، مسح على الحصان بإبهامه وهو يتذكر أمنيته في أن يمتلك مثل هذا الحصان وفجأة وبينما هو على هذه الحال ظهر الحصان أمامه وبدون أي مقدمات، ظهر من العدم، خاضعا مطأطأ الرأس كأنه خادم ينتظر أوامر سيده.

انتفض الشاب فور رؤيته الحصان وعيناه تكاد تخرجان من مقلتيهما من فرط الدهشة، نظر للعلبة كأنه يراها للمرة الأولى، نظر إليها وركز نظره على الذئب ومسح بإبهامه عدة مرات على رسمة الذئب، فظهر الذئب بعد لحظة في إحدى أركان الغرفة وتقدم ببطء حتى وقف بجوار الحصان، مسح على التنين فظهر الأخير بدوره ناظرا للشاب بغضب في البداية كأنه منزعج من استدعائه في غرفة ضيقة كهذه، ثم لانت ملامحه وخضع مضطرا مثله مثل الذئب والحصان.

الآن فهم الشاب سر العلبة، الآن تم حل اللغز الذي نسيه ونسي التفكير فيه، شغله الثراء حتى أنه لم يمسك العلبة يوما من الأيام أو يفكر فيها، وضعها في خزانته ونسيها تماما.

"من حق العجوز ألا يطلب أي شئ مني خلال رحلة نزولي إلى البئر سوى العلبة، كان سيحصل عليها وبعدها يطلب كل شئ وأي شيء" قالها الشاب في نفسه.

قفز من سريره و اقفا وعلى وجهه أشد علامات الفرح والسعادة، كان سعيدا حد الصراخ لكنه تحكم في نبرته وقال موجها كلامه للحيوانات الثلاث في آن واحد " كل واحد منكم يعود إلى الكهف، ويجلب لي كيس كبير مملوء بكل ثمين في كل حجرة يحرسها"

هز الثلاثة رؤوسهم في فهم واختفوا، بعد دقيقة ظهر التنين إذ كان أسرعهم ووضع الكيس من فمه على الأرض واختفى بعد أن نفّذ ما أمر به، وبعد دقائق ظهر الحصان ووضع الكيس على الأرض واختفى، وفي الأخير ظهر الذئب وفعل ما فعلوا واختفى بدوره.

لم يصدق الشاب عينيه، ثلاثة أكياس كبيرة متفاوتة الحجم من الفضة والذهب والأحجار الكريمة موضوعة أمامه، في لحظة أصبح أغني مما كان.

اشترى قصرا أكبر و أفخم من قصره الأول، وارتدى أفخر الملابس التي لا يرتديها سوى الملوك، و أقام الحفلات وذاع صيته أكثر من المرة الأولى، تعلم الدرس وتعرف على أصدقاء جدد حقيقيين، وقرر أن يرسل لوالده ووالدته بعد أن نسيهما ليعيشا معه في رغد العيش ويعوضهما عن سنوات الفقر التي عاشوها.

وفي ليلة سمع من بعض أصدقاءه أن الملك لديه ابنة جميلة جدا، حبسها في قصر مشدد الحراسة بعدما أخبرته العرافة أن من سيتزوج منها هو فلاح فقير من أبناء العامة وليس ملك أو حتى أمير من أبناء الملوك.

كثر الحديث عن الفتاة والجميع يمدحها ويذكر محاسنها وجمالها الأخّاذ، أراد الشاب أن يرى هذه الفتاة بعد كل ما سمعه عنها بعد أن أشفق لحالها، وفي الليل وبعد أن غادر الجميع ذهب إلى حجرته وفتح خزانته وأخرج العلبة السحرية، لم يكن هناك أنسب من وسط هذه الحيوانات إلا الحصان فقام باستدعائه.

ثواني وظهر الحصان أمامه خاضعا منتظرا أوامر سيده فقال له الشاب "أريدك أن تذهب إلى قصر الأميرة وتأتيني بها"

أومأ الحصان برأسه ثم اختفى، تأخر قليلا عن المرة السابقة، بل تأخر كثيرا والشاب يمشي في غرفته هنا وهناك، فجأة دخل الحصان طائرا من النافذة وعلى ظهره أميرة جميلة ناعسة العينين رقيقة الملامح، أميرة كما يجب للأميرات أن تكون، أنزلها الشاب برفق من فوق الحصان وهو يهدئ من روعها ويعدها ألا يصيبها مكروه.

أخذ يلاطفها حتى اطمأنت له، وقضيا الليلة حتى الفجر سامرين يمشيان في حديقة القصر بين الأشجار المثمرة والقمر يرسل إليهما أشعته الفضية فيضفي على المكان سحرا وبهجة، وفي آخر الليل أمر حصانه أن يعيد الأميرة إلى قصرها.

في البداية ظنت الأميرة أن ما حدث ما هو إلا مجرد حلم جميل قضته مع شاب وسيم، وهذا ما أخبرت به والديها في الصباح الباكر، قصت عليهم الحلم حين جاؤوها كالعادة في كل يوم ليتناولوا معها طعام الإفطار.

الحلم الغريب الجديد مر على الملكة مرور الكرام، لكن هذا لم يحدث مع الملك، أثار فيه الحلم بعض الشكوك وراودته كلمات العرافة حين أخبرته أن ابنته سيتزوجها فتى من عامة الشعب تخدمه حيوانات أسطورية مسحورة.

أرسل الملك سرا إلى وصيفة الأميرة وفي بهو القصر أخبرته القصة وبكل ما حدث وهي ترتجف "كنت جالسة بجوار الأميرة وفجأة ظهر من العدم حصان له أجنحة أخذها على ظهره وقفز بها طائرا من النافذة"

تأكدت شكوك الملك، وبعدها أعطى الوصيفة حذاء سحريا من يلبسه يصبح في سرعة الخيول، وأمرها أن تعرف المكان الذي ذهب إليه هذا الحصان.

انتظرت الوصيفة في تلك الليلة لعل الحصان يأتي كما الليلة السابقة، وقد جاء بالفعل، وحين رأته يظهر أمامها من العدم ويأخذ الأميرة ارتدت الحذاء السحري وخرجت تجري خلفه وتتبعته إلى أن وصل إلى قصر الشاب، فوضعت علامة فوق بوابة القصر وعادت.

أما الأميرة فعرفت أن في الأمر سر، ليس هناك حلم يتكرر مرتين بنفس الطريقة، وتأكدت أنها لا تحلم حين أخبرها الشاب بقصته بالكامل وسر ثروته وحيو اناته المطيعة التي تخدمه و أنه يريد الزواج منها.

تعلقت به الأميرة بدورها بعد أن سحرها بوسامته وطيب خلقه وتوددده إليها فوعدته ألا تخبر أهلها.

في صباح اليوم التالي لم تتكلم الأميرة كأن شيئا لم يحدث، لكن الملك أرسل في طلب الوصيفة وعلم منها أنها وضعت علامة على قصر الشاب ووصفتها له، وبسرعة أرسل الملك في طلب قائد الجيش وأمره بالبحث بين القصور عن هذه العلامة والقبض علي صاحب القصر بل وخرج الملك معه شخصيا.

لكن العجيب أن تلك المحاولة باءت بالفشل، فعندما أعاد الحصان الملكة إلى مخدعها وفي طريق عودته للشاب ليخبره أنه أوصلها بالسلامة وجد علامة على باب القصر ففهم أنها مكيدة والمقصود منها صاحبه فقام بتقليد العلامة على كل أبواب قصور المدينة في ثو اني معدودة.

خطرت في بال الملك فكرة أفضل من سابقتها، أخبر قائد الجيش أن يوزع الأفراد ليلا على قصور المدينة كلها، كل فرد يختبئ بجوار قصر، وعليه أن يعرف أسماء أصحاب القصور التي سير اقبها كل فرد، ومن يجد حصانا يحمل الأميرة ويدخل بها القصر ينتظر في مكانه ولا يغادره حتى نأتي إليه في الصباح.

وفي صباح اليوم التالي وبعد مراجعة أسماء العائدين سيعرفون الفرد الغائب والقصر المنشود. خطة في منتهى الدهاء استطاع بها الحاكم أن يصل للشاب

الذي فوجئ في الصباح الباكر أثناء نومه بعد ليلة جميلة قضاها مع الأميرة بأفراد الجيش يقتحمون قصره ويقبضون عليه في غلظة وشدة.

تمت محاكمة الشاب وحكم عليه بالموت جراء فعلته المشينة، ومن ثم زجوا به في السجن، وجد نفسه بعد أن كان في قصر مهيب في زنزانة ضيقة لها نافذة صغيرة تطل على بهو السجن لحين تنفيذ وقت الإعدام فيه بعد يومين.

قضى الشاب يومه الأول في حزن وكدر، توسلاته وبكائه للملك لم يرحماه من الحكم الذي أصدره تجاهه بنفسه، وفي اليوم الثاني وبينما هو واقف بجوار النافذة الصغيرة ملقيا نظرات الوداع على العالم والطبيعة رأى طفلا صغيرا دون العاشرة من عمره، نادى عليه وعرف منه أنه ابن السجان.

حينها خطرت على بال الشاب فكرة لو تمت فسينجو من الإعدام، بل وربما يتزوج الأميرة، نادى الطفل وحين جاءه مد الشاب يده وهو يشير إلى خاتمه الثمين الموجود بين أصابعه، وقال له "هل ترى ذلك الخاتم؟ ثم تابع سأعطيك هذا الخاتم إن استطعت أن تفعل شيئا بسيطا جدا" التمعت عينا الطفل وقال بسرعة ما هو؟ فأجاب الشاب "تذهب إلى قصري وتأتيني بعلبة صغيرة ومعها سجائري من خزانتي وهذا مفتاحها"

ووصف له مكان القصر والخزانة والعلبة وأكد عليه أن يأتيه بالعلبة ولا ينساها أو يسقطها مهما حدث وإلا فلن يعطيه الخاتم، طار الفتى وعاد بعد فترة قصيرة من الزمن مرت على الشاب كأنها أيام فهذا أمله الأخير وإن فشل الطفل فمعناه هلاكه.

أخذ منه العلبة والسجائر وأعطاه الخاتم كما وعده وجلس في ركن الحجرة وهو يحتضن العلبة، وهو يحتضن الحياة بأكملها.

وفي الظهيرة كان ميعاد تنفيذ الحكم، اجتمعت طوائف الشعب لترى لحظة إعدام ذلك الجريء الذي كان يواعد ابنة الملك سرا، جيء بالشاب مكبلا بالسلاسل وقبل تنفيذ الحكم سأله الجلاد سؤاله المعتاد "هل لك أمنية أخيرة؟" فقال الشاب" نعم، أريد تدخين سيجارة"

نظر الجلاد إلى الملك فهز الملك رأسه علامة الموافقة، وحين فكّ الجلاد قيوده وقف الشاب وأخرج العلبة من جيبه وراح يمسح على الرسومات الثلاثة وفي ثواني اجتمعوا ثلاثتهم في منظر مهيب حملقت له العيون، ذئب شرس يتلفت حوله منزعجا من وجود هذا الكم الهائل من الناس، وحصان مجنح عالق في الهواء يضربه بجناحيه، وتنين غاضب تكاد النار تخرج من فمه.

صرخ الناس وهرولوا هنا وهناك مذعورين، فأمر الشاب الحصان أن يأتيه بالأميرة والتنين بأن يأتيه بالملك والذئب أن يأتيه بالملكة، وحين وقفوا بين يديه ترجاه الملك أن يبقي عليه ولا يؤذيه فقد فعل ما فعل خوفا على ابنته، طمأنه الشاب ووعده ألا يصيبه بأذى، ثم طلب منه يد ابنته للزواج، فوافق الملك على الفور..

قصة جميلة، أعجبته جدا، قرأها مرة وثانية وهو يراجعها ويعدّل في بعض الكلمات منها، يحذف البعض ويبدّل البعض الآخر حتى انتهي منها تماما، لكنه شعر بعدم قبول مفاجئ لفكرته بعد أن اقتنع بها تماما قبل كتابتها، الآن لم يعرف ماذا حدث ولماذا تغيرت مشاعره تجاهها.

هل ستنشر؟

هل ستصبح حديث القراء كما أحلم؟

ربما لا، ربما سترفضها دور النشر لحداثة نوعيتها.

وماذا أفعل إن حدث ذلك؟

سيضيع عليّ معرض الكتاب فلا فرصة أخرى غيره سوى في السنة القادمة وستكون شعلتي قد انطفأت وعزيمتي قد ثبطت، خاصة وأن معرض الكتاب بالنسبة للكاتب كشهر رمضان بالنسبة للفنان، صحيح من الذي جعل شهر رمضان مخصص للمسلسلات فقط؟

كلها أسئلة راودته تباعا ولم يعرف أجوبتها، فكرة أن ترفض قصته أتعبت تفكيره لكنه لم ييأس وعاد إلى التفكير من جديد في نوع رواية يمكن كتابتها قبل معرض الكتاب.

في هذا التوقيت شعر بالجوع على الرغم من تناوله لطعام العشاء ولكن يبدو أنها أفعال الشتاء، والحرق السريع للجسد لتوفير الطاقة والدفء يجعل الشخص يشعر بالجوع المفاجئ، فقرر أن ينزل إلى أحد الدكاكين ليشتري فطيرة ويحشوها بالجبن والشيبسي ومعهم كوب من الشاي، جرى ريقه وهو يفكر في الوجبة السريعة اللذيذة المفضلة عنده.

نظر للساعة فوجدها العاشرة والنصف، ارتدى ملابسه مسرعا قبل أن يغلق آخر دكان يسهر في هذا البرد ونزل يقفز فوق السلالم قفزا.

خرج إلى الشارع يمشي مسرعا فالدكان على بعد مائتي متر. لا أحد في الشارع غيره، الكل في القرى يلجأ إلى بيته باكرا ليحتمي به من برودة الشتاء. وبينما هو يمشي مسرعا وفي أحد التقاطعات رأى ما اهتزت له جنباته ووقف له شعر جسده بالكامل، رأى وحشا أسطوريا، نصفه من الأعلى حمار ونصفه الآخر إنسان.

تسارعت ضربات قلبه وجرى الأدرينالين في جسده، قدماه أصبحت ثقيلة كجبل ولم يعرف أين يتجه أو ماذا يفعل؟ حتى لسانه حاول أن يقرأ به القرآن ولكنه لم يستطع.

لحظات مرت بين خوف وترقب، يقف مرعوبا والوحش أمامه لا يفصلهما سوى بضعة أمتار، أخيرا سيطر على نفسه وتحرك لسانه وراح يقرأ الفاتحة والمعوذات وآية الكرسي وكل ما يحفظ من القرآن الكريم وهو ينظر للوحش بتحدي بعد أن استراح قلبه بقراءة القرآن، كان ينتظر الوحش أن يصرخ أو يحترق في أية لحظة لكن شيئا لم يحدث.

وبعد أن قرأ كل ما يحفظ أعطاه الوحش ظهره منصرفا، وقتها تفاجأ صاحبنا بأن هذا الوحش ما هو إلا حمار ألبسه صاحبة جوال من الصوف على هيئة بنطال ليعينه على برودة الجو.

لعن الحمار وصاحبه في سره مئات المرات وهو يسرع الخطى قبل أن يغلق الدكان.

وأثناء الأكل خطرت له فكرة بسبب هذا الحمار والموقف الذي مر به، فكرة جعلته يشكر الحمار الذي وقع في طريقه كأنه رسالة لرواية ستجذب آلاف القرّاء، فكرة لا تراجع عنها، جاءته كطوق نجاة مفاجئ في وسط بحار الحيرة والتساؤلات.

لماذا لا يكتب رواية رعب؟ نعم لماذا لا يفعل ذلك؟

خاصة وأن قريته سمع بها المئات من الحكايات القديمة التي تصلح لرواية مثل روايات ألف ليلة وليلة، لماذا لا ينتقي من هذه الحكايات أجملها وأرعبها ويكتبه ولو على هيئة مجموعة قصصية، فالكل يحب قصص الرعب، ومهما اختلفت أذواق القراء تظل قصص الرعب وحكايات الجن والأشباح هي المفضلة عند شريحة كبيرة منهم.

استلقى فوق سريره وهو يتذكر كلمات صديقه أمجد حين أقترح عليه منذ أشهر أن يكتب عن الصعيد، فالأقلام هناك قليلة والأخبار عنها أقل، وذلك عندما أخبره صاحبنا حين كانا يشاهدان مسلسلا صعيديا يحكي عن مشكلة من مشكلات الصعيد أن الصعايدة لا يتحدثون بهكذا لهجة ولا يغالون في الملابس كما تصور المسلسلات، وكبير البلد لا يشترط أن يمسك عصا مزخرفة بالجواهر وتعلوها رأس ثعبان كوبرا.

"العجائز، جالس العجائز واسمع منهم ستجد العجب" ترددت جملة صديقه في رأسه، وعلى الرغم من سذاجة الفكرة حسب اعتقاده في البداية إلا أنها الآن لاقت استحسانه بشكل غير مسبوق، ربما لأن حلوله قد نفدت، وقال في نفسه يشجّعها "نعم رواية رعب أستمد أحداثها من كبار السن، فلديهم في جعبتهم مالم تتناقله الصحف أو تخطه المجلات"

ازدادت الفكرة لمعانا في رأسه، وقال يحدث نفسه، المصاطب هي المكان المفضل للعجائز، وهي تملأ الطرقات هنا وهناك، وأحاديثهم لا يمل منها، فعلى الرغم من أميتهم وجهلهم بفن الرواية وطرق التشويق إلا أن الواحد منهم لديه ملكة القص أفضل من كتاب كُثر معاصرون.

بات ليلته وهو يفكر في الرواية وأحداثها ويختار أسماء لأبطالها وفصولها، استيقظ في الصباح الباكر على غير عادته، وكان أول من زار ذاكرته هم العجائز والمصاطب.

شعر بالجوع لكن في البداية دخل الحمام وأخذ حماما ساخنا ثم ذهب للمطبخ وتناول بعض اللقيمات من طعام أمس، ثم فتح الدولاب واختار منه جلابية صوف ثقيلة تقيه برودة يناير خصيصا بعد الحمام الساخن، وانتعل صندله الجلد وشاله الصوف وأصبح صاحبنا في أتم صورة من وجهة نظره.

كان قد قرر قبل نومه أن يجلس فوق مصطبة بيت أبو مساعد فهي من أكثر المصاطب ازدحاما بالعجائز، ممن يظنون أن الحياة أعطتهم ظهرها وينتظرون رسول الموت وهو يتخطفهم الواحد تلو الآخر، العجيب أن صاحبنا كان يعرفهم ويحفظ ملامحهم فهو مذ كان طفلا يراهم على تلك الحال لكن لا يعرف منهم سوى اسم واحد أو اثنين والباقي فقط يعرفه بالشّبه.

في أيام الشتاء البارد يبحث كبار السن عن "السهراية" أشعة الشمس الأولى التي ترتطم بالأرض، ومصطبة بيت أبو مساعد هي أول مكان تهبط عليه الأشعة في المربع السكني كله، وحين خرج من بيته قاصدا المصطبة لم يكن هناك أحد فجلس عليها بمفرده.

العصافير تغرد فوق شجرة قريبة منه، تساءل في نفسه لماذا تغرد العصافير في هذه الساعة بالذات دون غيرها من ساعات اليوم؟ هل معناه أنها توقظ أخواتها أو أبناءها؟ أو ربما سعيدة بتناول طعام الفطور؟ أو ربما حان موعد نومها؟ استبعد الأخيرة وهو يقول في نفسه إن الطيور والحيوانات مخلوقات نشيطة لا

تعرف الكسل مثل الإنسان، ولو تغير حالها ونامت في الصباح وسهرت في المساء فسيكون الإنسان هو من علّمها ذلك.

السهراية منحت المصطبة شبرا صغيرا من الشمس فجلس عليه لكن على الرغم من ذلك لفحت وجهه نسمات من الهواء البارد هبت فجأة فرفع الشال من فوق كتفيه ولفه حول رقبته وأذنيه لينال بعض الدفء، فجأة هاجمته نوبة عطس استمرت عدة مرات.

جلس بمفرد مكان أول المجتمعين، دقائق ثقيلة مرت وهو يفكر فيما سيسمعه وكيف يدخل معهم في خضمّ حواراتهم وكيف يبرر وجوده المفاجئ بينهم، هم لن يسألوه بالطبع فالمصطبة حق للجميع وليست حكرا على أحد لكنها حق دائم لبعض العجائز وهي بالنسبة لهم كدفتر الحضور والانصراف كالمتواجد في المصالح الحكومية، إن تخلّف أحدهم عنها يعلم الباقون أن شاغلا شغله أو مكروها أصابه.

احتاج صاحبنا أن يفكر في سبب ليخبرهم به إن سألوه مع أنهم لن يسألوه، ولكنه توهم ذلك كي لا يظهر عليه التوتر والارتباك أثناء وجوده بينهم، و أيضا لكي يصب انتباهه وتركيزه في حفظ أحاديثهم التي سيجرّهم إليها، وبينما هو على هذا الحال عطفت عليه الشمس بشبر آخر أو أقل من السهراية ناحية اليسار فتحرك قليلا بمؤخرته لينعم بهذه المساحة أيضا، واعتبرها إجابة لا بأس بها إن سأله أحد بدافع الفضول عن وجوده غير المألوف هنا، ستكون إجابته " أتشمّس"

بمرور الوقت كبرت بقعة الشمس حتى غمرت نصفه العلوي بالكامل فأعاد الشال مرة أخرى فوق منكبيه وراح يستمتع بدفء الشمس ويثني في سرّه على حنانها، فهي الأم بالنسبة لجميع الكائنات، وتراجع عن استيائه من كبار السن

كلما رآهم يجلسون في الطرقات كل صباح وهم يبحثون عن الشمس متنقلين فوق المصاطب وتحت حوائط البيوت لعلهم..

قطع تفكيره رؤيته للعم مبارك وهو قادم تجاهه، فهو معتاد أن يجلس فوق هذه المصطبة بالذات ويعتبر نفسه من أقدم ملّاكها وأولاهم بالأشعة الأولى منها، لكن ما إن رأي صاحبنا يجلس مكانه غمغم ببعض الكلمات وهو يشتمه بصوت منخفض، وحين رأي صاحبنا الضيق قد ارتسم على وجه العجوز حرّك مؤخرته تاركا بقعة الشمس للعم مبارك واعتبر ذلك رشوة تمكنه من فتح حديث معه.

ووجد لسانه ينطلق دون قصد قائلا "تعال يا عم مبارك، تعال" وربت بيسراه فوق المصطبة.

رد مبارك وهو يرفع يمينه "لا يا ولدي، خليك مكانك" قالها كاذبا وصاحبنا يعرف ذلك لكنه ألحّ عليه في الجلوس فجلس مبارك وهو يقول " تسلم يا ولدي"

جلس على طرف المصطبة ثم عاد بظهره مستندا على الحائط وأغمض عيناه مستمتعا بالأشعة الدافئة وراح يتنفس ببطء ولم ينس أن يضع عكازه خلف ظهره كعادته.

عجوز شارف على الثمانين يرتدي جلبابا يتضح من هيئته ورائحته أنه ارتداه منذ أسبوع على أقل تقدير ولم يغسله من حينها، قصير القامة نحيف الجسد، وجهه مكتظ بالتجاعيد كالأخاديد، خلع عمامته ووضعها في حجره وبأطراف أصابع يديه حك رأسه في كل الاتجاهات والنواحي وهو يكرر ذلك عدة مرات حتى حك رأسه بالكامل لأكثر من مرة ثم أعاد العمامة إلى مكانها.

فكّر صاحبنا في جملة لافتتاح الكلام مع العجوز فلم يجد، وبعد دقائق من الصمت قطعها العجوز قائلا " كيف حالك، وكيف حال أبوك وأخو اتك؟"

فأسرع يجيب "الحمد لله، و أنت كيف حالك يا عمي وكيف حال صحتك والأسرة الكريمة؟"

رد العجوز وهو لا يزال مستندا برأسه على الحائط مغمض العينين" بخير يا ولدي الحمد لله"

خيم الصمت من جديد ولم يرد صاحبنا أن يقطعه مرة أخرى، إذ يبدو أن العجوز يريد الاستمتاع بالسهر اية، ولا يحب أن يقاطعه أحدهم طقسه المقدّس.

ترامت لمسامعهما صوت محرك سيارة قادمة من بعيد، وبعد لحظات ظهرت أمامهما وهي تتمايل ببطء من فرط ما تحمله فوق ظهرها، إذ استقر فوقه بقرتين وعجل صغير ورأس كل منهم مربوط بحبل متين في إحدى أركان السيارة، رفع السواق يده من خلف الزجاج فيما معناه السلام عليكم، لم يسمعاها وهو ربما لم ينطقها من الأساس لكن طالما رفع يده إذن فقد قالها بحسب الاعتقاد السائد في القرى، رد صاحبنا السلام وبعد لحظات رده مبارك ولكن كانت السيارة قد اختفت.

مبارك كان ينتظر موافي، أقرب أصدقائه، اعتاد الاثنان أن يكونا أول المجتمعين، يحكي كل واحد منهم للآخر ما يعرفه من جديد الأخبار، من مات ومن ولد، من تزوج ومن طلّق، من عاد من الخارج ومن سافر، من زرع ومن حصد، من باع ومن اشترى، بالإضافة لبعض الأمور الخاصة بزوجة ابن موافي وزوجته والحرب الضروس التي نشبت بينهما مؤخرا وماهي تطوراتها؟ وما آلت إليه الأمور،

لكن بوجود ذلك الشاب فقد ضاعت نصف الأخبار وسيتكلمان فقط في الأمور التي يعرفها العامة أو سيعرفها بعد قليل، مبارك يعرف موافي جيدا فهو ليس من النوع الذي يخرج أسرار بيته للغرباء مثل غيره من الأغبياء الذي يحكون أسرارهم بحسن نية فوق المصاطب ومن بعدها تصبح فاكهة المجالس وأحاديث البيوت.

موافي يختص مبارك فقط بأسراره، ومبارك يحكي لزوجته تفيدة ما سمعه من موافي، وتفيدة تختص جارتها محاسن فقط دون جاراتها بما سمعته عن مشكلة زوجة موافي وزوجة ابنها، وهكذا تبث القصة لباقي إذاعات ومحطات البلدة، ويستغرب العجوزان كيف خرجت هذه الأسرار! وبعد تفكير يهتديان إلى أن ربما محروس ابن موافي قد حكي لأحد أصدقاءه ممن لا تستقر الفولة في فمه، أو هكذا يقنعان نفسيهما ليرتاح ضميرهما.

وبينما صاحبنا مستغرقا في صمته باحثا عن وسيلة لبداية الحديث مع مبارك قبل أن يأتي أحدهم وتصعب عليه المهمة، ولكنه وللأسف رأى من بعيد أحدهم يمشي ناحيتهم أو هكذا أوحت إليه خطواته.

لا يعرف اسمه لكن يبدو أنه من زوار المصطبة، حاول أن يتذكر اسمه ليرفع الحرج إذا سأله عن حاله فلم يعرفه.

خطواته أقرب للشباب من العجائز، ولا يستند على عكاز، ترتسم الصحة على وجهه الممتلئ وبشرته المشربة بالحمرة وبطنه المنتفخ قليلا، يضع على رأسه طاقية بيضاء ولا يضع عمامة فوقها كما هي العادة، يرتدي جلباب فضفاض من الأسفل ضيق بعض الشيء من المنتصف والأعلى لكثرة اللحم الملفوق حول بطنه، هبت بعض النسمات الباردة فجأة مما جعلت الأوراق والأكياس تتناثر هنا وهناك مغيرة مكانها.

جلس الزائر الثالث الذي لا يتذكر صاحبنا اسمه بعد أن ألقى السلام الموجّه لمبارك فقط، فرد الأخير السلام وصاحبنا أيضا، لكن ليس بنفس نبرة مبارك.

جلس بجوار مبارك تماما الكتف في الكتف، وكانت الشمس قد منّت على المصطبة بجزء ليس بالقليل نال منها صاحبنا وما تبقى كان من نصيب مبارك وصديقه.

"كيف حالك يا عجوز؟"

قالها الزائر ساخرا، فرد مبارك" الفرق بيني وبينك تسع سنوات فقط يا موافي"

ضحك موافي وتابع "حسنا بعد تسع سنوات نادني بالعجوز كما أناديك، هذا إن استمريت على وجه الحياة من الأساس" وراح يتابع ضحكاته وبطنه تهتز مشاركة معه، ارتسمت بسمة على وجه مبارك ثم وأدها بسرعة وهو يهمس في أذن موافي كي لا يسمعه صاحبنا "كيف حال الجماعة؟"

أطرق موافي للحظات وظهر الوجوم على وجهه ثم قال وهو يرفع قدميه فوق المصطبة ويتربع ثم سند ظهره إلى الحائط "بنت الكلب مراتي تغار من زوجة ولدي، الفترة الصباحية تتحول إلى حرب إن استيقظت متأخرة ساعة عن شروق الشمس، أو إن لم تنظف البيت جيدا، وغيرها من الحجج التافهة، و أنت تعرف شغل الحريم"

تمتم مبارك كمن يريد إغلاق باب الحديث لوجود شخص غريب بينهم "ربنا يصلح الحال".

تنحنح صاحبنا وكحّ ليعلن عن بدء الحديث ثم قال بصوت حاول جعله واضحا و اثقا ليصدّقوا ما سيقول، وذلك لأن كل ما سيقوله كذب ولكبار السن قدرة خاصة على اكتشاف الكذب ولو كان عبارة عن كلمة واحدة.

وجه كلامه لمبارك وقال " كنت أحتاج منك خدمة يا عم مبارك"

نظر إليه العجوزان كمن يقولا تابع، فأردف "طلبوا منا في الجامعة أن نقوم بعمل أبحاث، ولكل طالب بحث مختلف عن الآخر، اختصت الجامعة الصعيد فقط بهذه الأبحاث، مثلا عاداته، تقاليده، غرائبه وعجائبه، و أنا قررت أن يكون بحثي في غرائبه وعجائبه"

ظهرت البلاهة على وجه العجوزان إذ لم يفهما ما تفوه به صاحبنا للتو وحين استنبط ذلك من نظراتهما قال موضحا "أقصد العفاريت، وحين سألت أخبروني بأنك أفضل من يحكي عنهم و أكثر من شاهدهم ولم يخف منهم"

وتابع حديثه بالإطراء على مبارك ببعض كلمات الثناء، عن شجاعته ومواقفه مع العفاريت قديما قبل دخول الكهرباء للقرية، وكيف أنه واجه كل هذه المواقف بدون خوف، قال الشاب ذلك وهو لا يعلم أية مواقف حدثت مع مبارك، ولكن كل ناس زمان حدثت معهم قصص وحكايات مع العفاريت، أو هكذا يتوهمون.

أصابت أسهم الثناء قلب العجوز فعدّل من عمامته وياقة جلبابه لا إراديا وقال بنبرة يتقافز منها الزهو "ما عفريت إلا بني آدم يا ولدي، ثم صمت قليلا وتابع كمحطة إعلامية تعلن عن برامجها، هناك حكايات كثيرة حدثت في القرية في

الزمن البعيد، معي ومع غيري، في الزرع وفي الشوارع الضيقة وعلى حدود القرية، أيهم تريد أن تسمع؟"

ارتسمت ابتسامة كبيرة على وجه صاحبنا بعد أن نجحت خطته وقال متلهفا "كلهم يا عم مبارك، و أنا سأختار الأقوى منهم وأعدك أن أذكر اسمك كمصدر موثق في البحث للقصص التي سأسردها فيه"

لم يفهم العجوز قصد الشاب لكنه يبدو أنه شيء جيد، مصمص موافي بطرف شفتيه وهو يقول" عجيبة يا أولاد، العفاريت لها أبحاث ويكتبوه في المدارس؟"

لم يعلّق عليه أحد كأنه لم يقل شيئا، نظر صاحبنا إلى مبارك ليحثه على بدء الحديث، ففهم الأخير ثم قال بعد أن خلع عمامته لا إراديا ولفّها من جديد لا إراديا أيضا "سأحكي لك حكاية عبد الشكور"

ظهر شبح ابتسامة على وجه موافي فهو يعرف هذا العفريت وظهر له من قبل وكان قديما حديث الساعة لعدة أيام في القرية.

لعبد الشكور ثلاثة من الأولاد، شباب كبار، أكبرهم في العشرين وأوسطهم في الثامنة عشر والصغير كان حوالي في الثالثة عشر، أوسطهم كان أخرسا، ويظن البعض أن به جنة فكانوا يتحاشونه ولا يقتربون منه، ومع ذلك فقد كان أفضل أولاد عبد الشكور من وجهة نظر أهالي القرية ووجهة نظر عبدالشكور نفسه، هو الوحيد من بين أخواته الذي يخرج للعمل يوميا، مرة في الزرع، وأخرى مع صنايعي سيراميك، أو محارة، أو نجار، المهم أن يعود كل يوم بأجرة يومه ويعطيه لأبيه دون أن يجبره على ذلك أو يطلب منه حتى.

وفي أحد الأيام طلب من والده وهو يلوح له بيديه شارحا أنه يريد الذهاب إلى عمته في سوهاج، وبالتالي يريد المال، امتقع وجه والده وراح يشاور له بدوره أن زيارته لعمته مكلّفة وتتطلب شراء اللحم والسمن بالإضافة لخبز بعض الأرغفة الطازجة، والحال هذه الأيام صعب وزيارة كهذه لا يملكون ثمنها، وحتى لو يملك فالبيت ومتطلباته أولى بها.

علا صوت الابن وهو يشوّح بذراعيه في الهواء تارة ويضع يده فوق رقبته تارة أخرى كناية عن اختناقه وتعبه من البلد وأجوائها، وأنه يريد تغيير الجو عند عمته، والحقيقة أنه يريد الذهاب هناك لاشتياقه لابنتها سحر، فهو يحبها ويظن أنها تحبه لمجرد أنها تعامله بلطف دائما وتبتسم له وتقوم على كل احتياجاته حين يقضي معهم عدة أيام هناك.

هو يشاور ووالده يشاور ويشرح له الظروف وضيق الحال وتكرر الأمر عدة مرات...

تطور الأمر وأصبح صوت الولد كالصراخ، برزت عروق جبينه واحمرت عيناه وقاله لوالده فيما معناه وهو يشاور " إذن هات من أموالي التي أعطيها لك كل يوم"

فشاورله الأب بنفاد صبر وضيق" ليس معي نقود"

هنا صرخ الابن وهو يجري كالمجنون ناحية المطبخ وخرج بالسكين وهو يمسكها بيد وبالأخرى يشاوربها يطلب النقود.

كان أهل البيت يتابعون بحسرة ما يحدث منذ البداية وما إن رأوا الولد يدخل المطبخ ويخرج بالسكين صرخت الأم وقام أخوه الكبير ليأخذ السكين من ذلك المجنون الأهوج، أمسكه وكتّفه من الخلف وحاول أن يستخلص السكين من يده فلم يستطع، ازداد الغضب واشتعلت الأجواء، لحظات من المقاومة بين الأخين استطاع خلالها الأخرس الإفلات من ذراعي أخيه و انطلق نحو والده كالسهم وبدون كلمات غرس السكين في صدر والده الو اقف مذهولا مما يرى، أخرجها ثم غرسها مرة أخرى وأخرجها ثم أخرى، ثو اني من الصمت والذهول كأن الزمن قد توقف ثم سقط الأب جثة هامدة دون حراك.

صرخت الأم بعلو ما تستطيع من صوت، منظر الدماء زادت من جنون الأخرس فالتفت نحو أخيه بعينان تشعان غضبا و انقض عليه هو الآخر وقبل أن يدافع الأخ عن نفسه أو يفكر في ذلك كان الأخرس قد بقر بطنه وسقط يتلوى من فرط الألم وماهي إلا لحظات حتى هدأت حركته.

كان صراخ الأم وعويلها ولطمها للخدود قد ترامى إلى مسامع الجيران والمارة في الشوارع، طرقوا الباب ثم ازدادت الطرقات حتى كادوا يخلعوه من مكانه ولا

يستجيب لهم أحد، وفي الأخير تطوّع أحد الجيران وبيته كان ملاصقا لبيتهم الحائط في الحائط، فقفز من منزله إليهم.

لم يجد أحدا في الدور الثاني غير المسقوف فنزل للدور الأول وحينها شاهد مالم يخطر على باله ولا بال المتجمهرون أمام باب المنزل، رب البيت ملقى على الأرض بعينين شاخصتين في اللاشئ وبجواره ابنه البكري محمد لا يتحرك وجلبابه مغطى باللون الأحمر من كثرة الدماء وبجوار الجثتين افترشت الأم الأرض وهو تولول وتبكي حتى بح صوتها، وتأخذ من التراب وتضعه فوق رأسها فتنساب ذراته على كتفيها وتستقر في حجرها وفوق ركبتيها.

بطرف عينيه لمح الأخرس منزوي في ركن من أركان البيت، يجلس القرفصاء واضعا يديه فوق ركبتيه، يتنفس بتشنّج، ممسكا بيده سكين تلوث نصله بالدم.

احتار الجار فيما يفعل، هل يأخذ السكين من الأخرس قبل ان يؤذي نفسه أو يقتل أمه أو يهاجمه هو شخصيا؟ أم يفتح الباب ليستعين بالناس عليه؟

لكنه فكّر أن أخذ السكين منه وهو في هذه الحالة ربما يكون قرار غير صحيح، يجب عليه أن يستعين بالناس فهو القرار الأسلم، اتجه نحو الباب ببطء ينوي فتحه وهو ينظر للأخرس بطرف عينيه مترقبا، وكأن الأخير فهم ما ينوي الجار فعله، فهجم عليه كالنمر لكنه تعثر وسقط من فرط سرعته ومع ذلك استطاع اللحاق بالجار وهو يجري على يديه ورجليه قبل أن يصل إلى الباب فامسك بطرف جلبابه وهو لا يزال و اقعا على الأرض ولكن لم يستطع إيقافه، الجار يمشي بصعوبة وهو يجر الأخرس الممسك بثيابه إلى أن اقترب من المزلاج، وقبل أن يمد يده نحوه استطاع الأخرس أن يقف ويغرس السكين في ظهره، ومع ذلك استطاع أن يفتح المزلاج و انفتح الباب قبل أن يسقط الجار وتتدافع الناس إلى الداخل.

دخلت الناس أفواجا كالأمواج المتلاطمة، وفي اللحظات الأولى عرفوا ما جرى، لكن لم يعرف أحدهم السبب، وخمّن البعض أنها إحدى حالات الصرع التي تصيب الأخرس، راح ضحيتها والده وأخاه.

اتصلوا بالشرطة وجاءت وأخذت الأخرس الذي استطاع الناس شد وثاقه قبل أن يرتكب جريمة أخرى والجثتين والأم لمعرفة أسباب الحادث، الأخ الأصغر من حسن حظه لم يكن موجودا في هذا التوقيت وإلا لكان في عداد الموتى، وعندما عاد أخذته أمه وغادرا البلدة.

بعض الناس يقول أنهما انتقلا للعيش في أسيوط مسقط رأس الأم، والبعض الآخر يقول أنهما انتقلا للعيش في البندر في شقة إيجار واختفيا عن الأعين بسبب الفضيحة، وبعدها أصبحت الحادثة حديث أهالي القرية والقرى المجاورة دهرا، يتناقلها الشيوخ والناس وحتى الأطفال.

طأطأ صاحبنا رأسه وراح يهزها في أسف ظنا منه أن الحكاية انتهت مع أنها لم تكن النوعية التي طلبها، أخرج مبارك علبة السجائر من صدريته وهو مستمتع بلذة القص وأن ما حوله يستمعون فقط وهو سيد المجلس.

أشار لصاحبنا بواحدة فرفضها في أدب وتابع مبارك، الولد حسين السواق كان عائدا بسيارته في وقت متأخر حوالي الثانية بعد منتصف الليل، وبيت عبد الشكور عند مدخل البلد من الناحية الشرقية، حسين السواق حلف مائة يمين أنه شاف عبد الشكور واقفا على سطح بيتهم وفي يده جذع شجرة ضخم، وحين رأى حسين قادم من بعيد

قفز من فوق البيت قفزة أصبح بها على الأرض طائرا كالدجاجة وجرى ناحية السيارة وعينيه حمراوين كالجمر، وعندما رأى حسين هذه المشهد وقف شعر راسه وجسده كله وطار بسيارته وعفريت عبد الشكور يجري خلفه رافعا جذع الشجرة في تهديد ووعيد، أسرع حسين وأسرع حتى تخلص منه.

حكى حسين في اليوم الثاني ما حدث معه لبعض أصدقائه و أقاربه وتناقلت القرية القصة، منهم من صدّق ومنهم من كذّب، لأن حسين سائق ومن عادة السائقين شرب الحشيش والبرشام وغيرهم من المواد المخدرة كما تعلم للبقاء يقظين عدة ساعات متتالية.

لكن بمرور الوقت زادت القصص والحكايات عن عفريت عبد الشكور وعصاه الضخمة الممسك بها دائما، ووقوفه على سطح منزله يهدد هذا وذاك، وهو هائج كالثور، رآه الجيران والسائقين وغيرهم فقرر أهالي القرية رصده ليرتاحوا من شرّه.

قاطع صاحبنا العم مبارك وهو يقول "رصد؟" هذه الكلمة معروفة المعنى مجهولة الكيفية عند صاحبنا، هو يعرف معناها، أو ما ترمي إليه أو الغرض منها لكن كيف تحدث؟ لا يعرف.

" وهل رصدوه يا عم مبارك؟"

قالها صاحبنا مستدرجا مبارك ليكمل حديثه، أما الأخير كان قد شارف على إنهاء سيجارته الثانية، فالتقط آخر نفسين منها بسرعة فتكونت حول وجهه غمامة من الدخان وبإصبعه الأوسط قذف السيجارة من بين سبابته وإبهامه فطارت وسقطت في منتصف الشارع، وقبل أن ينطق ليتابع قال موافي لصاحبنا

"أحكيلك أنا عن الرصد، أنا ممن حضروا رصد عبدالشكور، مبارك لم يكن موجود وقتها" واعتدل في جلسته معطيا وجهه لصاحبنا.

للرصد مواعيد محددة، وتبدأ طقوسه من اليوم الثالث وحتى أربعين يوما، فإن مر الأربعون ولم يتم رصد عفريت الميت فلن يرصد أبدا، وفي الأسبوع الثالث بعد أن كثرت القصص والأقاويل حول عفريت عبد الشكور استدعى بعض أهالي القرية الشيخ عطوة فهو المتخصص في هذه الأمور والكل يشهد له.

وفي إحدى الليالي وبعد صلاة العشاء تجمع نفر من جيران عبدالشكور وأعيان القرية أمام بيته، ومع أن عددهم ليس بالقليل إلا أن الخوف نجح في الظهور على وجه معظمهم، وراحوا ينظرون بين الحين والآخر فوق المنزل يخشون ظهور العفريت فجأة أو ينقض عليهم ويقتلهم فيصبحوا عفاريت مثله.

جاء الشيخ عطوة يمشي ببطء كمن يمشي فوق شظايا زجاج متناثر، مرتديا جلبابه الأسود المخطط وعمامته الملفوفة حول رأسه والتي إن فردتها وقصصتها لأكفت المتواجدون كلهم، تراصت الخواتم في يديه كأنها جزء منها، ظهره منحني قليلا من أثر السن، وبدون أن يلقي السلام تقدم تجاههم وأشار نحو الباب إشارة أن يفتحوه، كانوا جميعا يخشون أن يفتحوه قبل مجيئه خوفا من انتهاك حرمة منزل به عفريت قد تصيبهم لعناته، لكن بعد أن جاء الشيخ فلا خوف ولا ريبة فهو الدرع الحصين وحامي الحمي من أي عفريت أو جان.

تقدم موافي أكبرهم سنا و أقلهم خوفا ممسكا بمطرقة ومسمار ضخم، وضع المسمار في القفل الحديدي وطرق فوقه وماهي إلا طرقتان حتى استجاب القفل وخرجت الحديدة التي تشبه حدوة حصان من مجراها بداخله.

نزع القفل وفتح المزلاج الحديدي وزاح الباب ثم تراج للخلف مفسحا الطريق للشيخ عطوة. ضربت الو اقفين رائحة عطنة فمنهم من غطى أنفه بكم جلبابه ومنهم من لم يعبأ بها، تقدم عطوة بخطوات وئيدة ودلف داخل البيت، ومن بعده موافي ومن بعده خمسة أشخاص من أصحاب القلوب القوية، وتقدم واحد منهم فأشعل اللمبة فظهرت معالم المكان، أريكة قديمة موضوعة أسفل الحائط كان ينام فوقها عبد الشكور، تحاشاها الجميع عدا عطوة الذي تقدم وجلس عليها، طلمبة مياه حولها حوض اسمنتي صغير في الركن المقابل، وفي الركن الثالث منضدة فوقها بوتاجاز قديم فوقه ركنية بها بعض الأطباق و إناء كبير اسودّت جو انبه وقعره، وحصير صغير أسفل الركن الأخير موضوعة تحت الحائط، جلسوا عليها وأشار عطوة لأحدهم ليغلق الباب.

بدأ عطوة يهمس بصوت منخفض غير مسموع وهو يهتز يمنة ويسرة، يعلو مرة ويعود للهمس أخرى، ثم توقف فجأة وفتح عينيه وكأنه قد استيقظ من غفوة، وجّه حديثه للجميع قائلا "من سيشعر منكم بالنعاس أو تنميل في فخذه الأيسر فليخبرني بعد أن نخرج من هنا" وعاد يتمتم من جديد.

ثم قال وكأنه يحدث اللاشئ بصوت واضح "أنعم بالسلام على الزوار، يا ساكن الدار، ليس لك هنا مقام، يا ساكن الدار، تعالى ننهي المشوار" كرر الجملة مرارا وبعد فترة فوجئ الجميع بما شاهدوا، شاهدوا برصا ضخما أسود اللون لا يظهر منه سوى عيناه الصفراوان، وحين دققوا النظر وجدوه جو انبه مغطاة بألوان ذهبية على شكل تموجات، كرر الشيخ عطوة جملتين فقط "أنعم بالسلام على الزوار، وتعال ننهي المشوار" كررهما كثيرا والبرص مستمر في النزول من الحائط،

عطوة يكرر والبرص مستمر في النزول حتى أصبح يمشي على الأرض وسط نظرات وذهول كل الحاضرين.

اعتدل عطوة في جلسته فظن البرص أنه سيقوم ليمسك به فهرب بعض الخطوات إلى أن صعد على طرف الحائط ونظر لعطوة بعيناه فرآه لا يزال جالسا فوق الكنبة يقول له "لا تخاف يا ساكن الدار وتعال ننهي المشوار" فنزل على الأرض مرة أخرى وراح يقترب من عطوة في تؤده وحذر إلى أن أصبح قريبا منه جدا، حينها قال عطوة في لوم وعتاب كأنه يخاطب صديقه "الناس والجيران يشتكون منك"

فتح الجميع أفواههم وهم يسمعون صوت إنسان يخرج من البرص قائلا "ليس باليد حيلة" فانكمشوا جميعا في بعضهم كالدجاج ثم أكمل عطوة:

" لا عليك، تعال معي، سأخذك لمكان أفضل من هذا"

خرج الصوت من البرص مرة أخرى وكأنه فهم ما يرمي إليه عطوة

" لا، أنا مرتاح هنا"

صرخ عطوة فجأة وهو يهدد.

" تعال معي وإلا لن يكون لك في الدنيا آثار و أنت تعرف ذلك"

تحول صوت البرص إلى نحيب وكأنه رجل يبكي

"ابني قتلني، وخرب الدار، والبكري لم يبقى له في الدنيا آثار"

هدأ صوت عطوة وكأنه تأثر بالكلمات ثم قال:

" تعال ولا تخرّب ما بقي من سمعة وأخبار"

ثم أخرج علبة زجاجية شفافة اللون ونزع غطاءها ووضعها على الأرض موجها فوهتها ناحية البرص وهو يقول "تعال ولا تفسد ما بقي من أخبار" والبرص يمشي ببطء ناحية البرطمان كالمنوم مغناطيسيا إلى أن دخل برأسه ثم توقف قليلا كأنه يراجع نفسه والقرار الذي هو مقدم عليه "ادخل حبا في النبي المختار، وستكون حرا بعيدا عن الدار" قالها عطوة مشجعا فأكمل البرص طريقة داخل البرطمان إلى أن استقر فيه تماما.

فقام عطوة من مجلسه وتقدم ناحية البرطمان ورفعه ببطء وأحكم غلقه بالسدادة وعاد لمجلسه من جديد، كبّر الجالسون وهللوا ومنهم من هرول راكعا يقبل يد الشيخ ومنهم من يقبل رأسه وحين انتهوا نظر لموافي وهو يقول "الحساب".

كان الأقارب والمتأذون من عفريت عبدالشكور قد جمعوا مبلغا من المال حين سمعوا بمجيء الشيخ عطوة وأعطوه لموافي ليحاسبه حين ينهي الأمر ويتم رصد عفريت عبد الشكور.

فتح موافي صديريه وأخرج مبلغا من المال وهو يسأل عن مصير ما في البرطمان فقال له عطوة "سأخرجه في مكان ما بعيدا عن هنا كما وعدته ربما في الصحاري".

ثم خرجوا جميعا وعرف من بالخارج أن الشيخ قد رصد العفريت فهللوا وكبروا بدورهم وأخرج أحد الجيران قفل حديدي غير الذي كسر ووضعه على الباب وقال "المفتاح موجود معي لحين عودة أصحاب البيت" ثم انفض الجمع في سعادة غامرة وما هو إلا سواد الليل وعرفت كل القرية أن عفريت عبد الشكور تم رصده و انتهت مشاكله ونعمت القرية في سلام وبعدها أصبحت قصة عبدالشكور شيئا فشيئا في طي النسيان.

في هذا التوقيت كان زوار المصطبة قد زادوا ومنهم من سمع حكاية عبد الشكور من منصفها ومنها من سمع أواخرها، رأى صاحبنا أحدهم وكان جالسا بجوار مبارك وهو يشاور لشخص آخر بيده مستفسرا عما يحدث فهمس له الأخير بشيء ما فهز الرجل رأسه في عجب وهو يقول" عفاريت؟ عندي الكثير منها" ثم نظر لصاحبنا وهو يقول" أحكيلك؟"

شعر صاحبنا أن الحكايات ستزداد وربما تفوته تفصيلة ما، فأخرج هاتفه وشغّل مسجل الصوت ووضعه في جيبة من جديد.

قرية الدهامسة تحد قريتنا من الناحية الشرقية، تفصلهم الأراضي الزراعية المترامية من قصب السكر والذرة وغيرهم من شتّى أنواع الزروع، بالإضافة لترعة صغيرة تمتد على طول الأراضي يسقي منها المزارعون، وفي إحدى الفترات اشتكى المزارعون من امرأة مجنونة من سكان هذه القرية تتجول وسط الأراضي ليل نهار.

في النهار ليس بمشكلة؛ ولكن في الليل كانوا يخافون منها من فرط المواقف المرعبة التي تعرّضوا لها بعد أن ظنوها شبحا واكتشفوا في الأخير أنها المرأة المجنونة، ذلك لأنها دائما ما ترتدي بردة سوداء وطرحة مثلها بالإضافة لبشرتها السوداء أيضا، فلا يظهر منها لون غير اللون الأسود سوى عيناها وأسنانها البيضاء.

زاد الأمر عن حد الاحتمال فاشتكى أهالي القرية لأهالي القرية الأخرى بخصوص هذه المرأة، اعتذر أهالي قرية الدهامسة من أفاعيل هذه المرأة وحكوا سبب مجنونها، إذ أنها شاهدت طفلها الصغير الوحيد بعد صبر سنوات دون حمل

يدهسه قطار البضائع الخاص بالقصب، ومن حينها أصبحت مجنونه وتمسك في يدها لفافة من الملابس على هيئة طفل وتمشي بها في الطرقات، رقّ أهالي قرية صاحبنا لحال المرأة لمصابها وكفوّا عن الشكوى، لكن بعد مرور أسابيع وجدوها في أحد الأيام مقتولة ومرمية في جدول من الجداول، لم يستدل على القاتل ولم تحقق الشرطة في ذلك إذ ارتاح الجميع منها.

عند هذا الحد وكل شئ جميل، لكن الطامة الكبرى أن ظهر عفريت هذه المرأة وتفاقم الوضع أكثر من كونها على قيد الحياة، وأول من ظهرت له هو عباس سائق التوكتوك إذ قال: كنت عائدا من توصيلة لقرية أبو الغيط في وقت متأخر من الليل، وبينما أنا عائد وبالتحديد بجوار الترعة وجدت امرأة ومعها طفل صغير تشاور لي لأقف، وقفت لها و أنا أتأملها، تلبس بردة تغطي بها كل جسدها حتى وجهها لم أره، تساءلت كيف لامرأة أن تتواجد هنا في هذا الوقت المتأخر من الليل؟

طلبت مني أن تركب معي وأوصلها لبيتها فو افقت، طوال الطريق و أنا أسأل نفسي كيف جاءت هذه المرأة هنا بمفردها وسط الزروع؟ وكيف تركها زوجها أو أهلها تخرج في هذا الوقت المتأخر من الليل؟ وبينما أنا غارق في التساؤلات، وحين ظهرت المنازل من بعيد وشارفت على إنهاء الطريق الزراعي طلبت مني أن أنزلها ونحن وسط الزروع، إلى أين ستذهب هذه المجنونة؟ شيء ما قال لي أن أنظر في المرآة وليتني لم أفعل، رأيت وجهها وكان مغطى بالثعابين وكأنها جزء منه، أفاعي صغيرة تتحرك وتتلوى، تجمّدت في مكاني وتسارعت دقات قلبي وتظاهرت أني لم أرها كي لا تؤذيني و أنا أنتظرها بفارغ الصبر أن تنزل، وما إن غادرت التوكتوك فررت هاربا من الخوف وحين نظرت في المرآة لأراها إلى أين ستذهب لم أجدها.

ظهرت مرة أخرى لعلي ابن منصور وهو عائد بالموتوسيكل من الدرس وفي نفس المكان يقول رأيت حصانا أحمر اللون يميل للون الذهبي و اقفا على خد الأرض الزراعية، وكان الوقت ليلا بعد العشاء ولا يوجد أحد بجوار الحصان، ويبدو على هيئته أنه بدون صاحب، ومن فرط جماله نوى أن يأخذه ويترك الموتوسيكل عرضة للسرقة، فالحصان مغري وجميل وثمنه يفوق ثمن الموتوسيكل عدة مرات، وما إن اقترب من الحصان حتى انتفضت شعيرات جسده كلها، وعرف ما فيها، أن هذا ما هو إلا عفريت متنكر في هيئة حصان، وبسرعة طار بالموتوسيكل والحصان يجري بمحاذاته، يقول كان يجري بجواري مباشرة وكلما ضاعفت سرعتي زاد من سرعته، كان يستطيع أن يفوقني سرعة لكنه كان يجري بجواري لأشعر بأكبر كم من الرعب، وما إن وصل إلى بداية المنازل حتى اختفى من جواري فجأة كأن لم يكن.

وكثرت الأحاديث والقصص حول هذه المرأة وظهرت عدة مرات للمزارعين هناك أثناء تواجدهم ليلا لسقي الأرض أو نهارا لحرثها، ولم يستطع أحد رصدها لأن الأوان قد فات وبمرور الوقت قلّ ظهورها تدريجيا حتى أصبح شبه نادرا لكنها ومع ذلك تظهر ونسمع قصتها مرة أو مرتين في السنة.

في هذا التوقيت كان الكثير قد تجمهر حول المصطبة يسمعون الأحاديث والحكايات، خاصة الرعب منها تجذب العديد من الناس، منهم من يستلذ بالسمع ويطرب ومنهم من يحكي قصص حدثت معه أو سمع عنها أو يختلقها لينال انتباه الجميع، وانهالت القصص على صاحبنا، منها ما هو حقيقي ومنها ما ألّفه بمساعدة مخيلته التي جادت عليه بالكثير.

أمام قسم الاستقبال الخاص بمستشفى القرية جلست ممرضتان تتبادلان أطراف الحديث، الساعة شارفت على الواحدة بعد منتصف الليل، والحركة قد هدأت منذ بضعة ساعات واليوم هو دورهما في النبطشية الليلية للمستشفى.

الدكتور النبطشي نائم في سياراته، لا يخرج منها إلا في الحالات الطارئة والتي نادرا ما تحدث سواء كانت حادثة مرور أو جريمة قتل أو كسر، يقوم بعمل الإسعافات الأولية ثم يحوّل المريض لمستشفى المحافظة، أما الممرضتان تختصان بالحلات الخفيفة مثلا إعطاء حقنة للدغة عقرب أو قياس الضغط والسكر أو تركيب المحاليل أو التغيير للجروح.

ولأن جو المستشفى ملئ بروائح الدواء وغيرها خرجا أمام قسم الاستقبال في الهواء الطلق وجلستا على أريكة خشبية لتستمتعا بنسمات الليل الصافية المنبعثة من الأشجار الكثيفة من حولهما، أمام المستشفى مباشرة يوجد مبنى قديم لمشرحة أغلقت منذ أكثر من عقد من الزمان واستبدلت بمشرحة جديدة في المبنى الجديد للمستشفى نفسه، المشرحة القديمة مطلية باللون الأبيض الباهت ربما كانت محاولة لتجديدها فيما مضى لكنها الآن مغلقة، نوافذها صغيرة بالكاد تكفي دخول طفل صغير، يحيط بها الحديد المقوى وكأنهم يخشون فرار الجثث منها ليلا.

في الساعة الثانية ثقلت أجفان الممرضتين وتراخت رأسيهما للوراء، وفجأة شعرت إحداهما أن هناك من أمسكها من قدميها وجرهما بقوة فسقطت من فوق الأريكة على الأرض، أرادت الصراخ فلم تستطع وخرج صوتها مكتوما، وحاولت أن ترى من يفعل ذلك فلم تستطع أيضا، استمرت على هذا الحال للحظات نائمة على الأرض بجوار الأريكة وقدميها مرفوعتان في الهواء، بعدها

أمسك أحدهم بقدميها الاثنين وراح يمسح بها الأرض حول الأريكة على شكل دائرة وهي تحاول الصراخ دون فائدة، و أثناء افتراشها الأرض وهي تُسحب هنا وهناك تمنّت أن تمسك قدم صديقتها النائمة لتوقظها فتنقذها مما هي فيه لكن لم تستطع، وفي الأخير وبعد لحظات من المعاناة استطاعت الصراخ، صرخت صرخة مدوية سمعها كل من هو موجود في هذه اللحظة، لكنها فجأة وجدت نفسها مازالت نائمة في مكانها، خانتها أعصابها فأصدرت صرخة مكتومة.

استيقظت صديقتها على صوتها مفزوعة، كانت ضربات قلبها متسارعة وتشعر بخدر في نصفها السفلي وقطرات العرق تكونت فوق جبينها، طمأنتها صديقتها وراحت تربت على كتفيها وتطمئنها بأن كل ما حدث ما هو إلا كابوس قد استيقظت منه للتو.

كابوس مرعب مروع لم تره من قبل في أسوأ أحلامها، وفجأة نظرت الممرضتان فوقهما في نفس الوقت لأعلى المستشفى بدون سبب، شئ ما أخبرهما بذلك، فشاهدتا امرأة بشعر منكوش وملابس بيضاء تنظر إليهما وتبتسم والدماء تتساقط من شعرها عليهما.

صرخا بأعلى ما أوتيا من صوت، لحظات وخرج الدكتور من عربته مفزوعا وجاء من بعده الغفير أسعد والذي كان جالسا على كرسيه أمام مجمع المباني، سمع الصوت وجاء يجري بدوره ممسكا بندقيته القديمة اللافائدة منها.

حكت الممرضتان ما جرى لهم، ظهرت علامات التعجب والدهشة على وجه الدكتور بعكس أسعد الذي تقبل الموقف فهذه ليست المرة الأولى التي تظهر فيها هذه المرأة، فقد رآها من قبل أكثر من مرة إلى أن اعتادها بعد أن عرف قصتها من الغفير الذي يستلم منه في الصباح.

أخبره بحكايتها، حيث نقلها أهالي القرية في يوم مشئوم بعد تهدم البيت فوقها، ولحسن الحظ لم يكن فيه لا زوجها ولا أولاها، جاؤوا بها جثة غارقة في الدماء ووضعت في المشرحة وقضت فيها بعض الساعات إلى أن أصدر تصريح دفنها وأخذوها مرة أخرى.

أما الحكاية الثانية التي تخص هذه المرأة سمعها أسعد من أحد أهالي القرية حين جاء مع عمه إثر حادث مروري لم تسفر عنه ضحايا، فقط بعض الخدوش والكدمات، أدخل المرضون عمه إحدى الغرف لإجراء اللازم ووقف ابن أخيه في الممر بالخارج ينتظر انتهاءهم.

أراد أن يشعل سيجارة ولأن الوقت متأخر من الليل ولا حركة في المستشفى قرر أن يدخنها في الممر، وما إن أشعلها والتقط منها نفس والثاني رأته إحدى الممرضات وطلبت من إطفاءها ففعل ثم سألها عن حال عمّه فطمأنته ثم طلب منها بتودد أنه يريد التدخين وشرح لها أنهم في الدور الثالث والنزول للدور الأرضي والصعود مرة أخرى أمر غير هيّن على مدخن مثله.

نظرت حولها لتتأكد من عدم سماع أحدهم لكلماتها وعندما اطمأنت، قالت له اتجه إلى آخر هذا الممر و اتجه يسارا حتى تصل لثلاث غرف غير مضاءة يمكنك التدخين هناك فلن يراك أحد.

شكرها و اتجه ناحية وصفها حتى وصل لغرف غير مضاءة، والممر مضاء بمصابيح قديمة صفراء وغير نظيف مثل باقي الممرات وكأن هذا الجزء من المستشفى لا يخصها، نظر في الغرف ورأى على الضوء القليل المنبعث من الممر بعض المراتب القديمة ملقاة هنا وهناك وجهازين طبيين مكسور أحدهما والآخر

ملقى على جانبه وبعض الكراسي الخشبية وكرسي مزود بعجلات يبدو بحالة جيدة، ولأنه مجهد قرر أن يدخل ويجلس عليه ثم يشعل سيجارته.

دخل الغرفة ومسح بيده الأتربة من على الكرسي ثم جلس عليه وأخرج علبة السجائر والتقط منها واحدة وأشعلها وهو يفكر فيما حدث مع عمه وراح يحمد الله أنه لم يتعرض للكسر، فالعجائز في هذا السن إن كسرت لهم ساق أو ذراع يبقى كذلك حتى الممات ولا تنفعهم الجبائر.

شعر بلدغات الناموس في قدميه فرفع شاله الكشميري من فوق كتفيه ووضع طرفه على ركبتيه والطرف الآخر دلّاه حتى قدميه، وبينما هو غارق في التفكير أحسّ بالشال يرتفع ببطء إلى الأعلى كاشفا عن قدميه معرضا إياهما للدغات الناموس من جديد.

أنزله مرة أخرى وهو لا يفكر في الأمر سارحا مع سيجارته فتكرر نفس ما حدث، وحين فاض به الكيل خلع صندله الجلد ووضع طرف الشال ما بين قدميه والصندل وضغط عليه كي لا يرتفع مرة أخرى والطرف الآخر على ركبتيه، أشعل السيجارة الثانية وراح ينفس منها وفجأة راح الشال ينساب من أسفل يسراه ببطء كأن أحدهم يجذبه للأعلى، شعر بذلك كله،

هناك شئ غريب يحدث، ثم كيف يرتفع للأعلى؟ المفروض يقع للأسفل، نظر لأسفل قدميه هنا وهناك علّه يعرف السبب ولكن دون فائدة وحين نظر أمامه من جديد رآها.

سيدة بملابس بيضاء وشعر منكوش تجلس القرفصاء أمامه وشعرها الأسود يغطي وجهها ويصل إلى ركبتيها، نهض مسرعا ليفهم ما يحدث حوله ومن فرط الدهشة خانته قدماه فارتطم على الأرض بشدّة.

انتابه الغضب واحمرت عيناه من فرط ذلك وبرزت عروق وجهه وراح يبحث عن هذه المرأة التي اختفت بعد وقوعه، أنساه غضبه كينونتها، بحث خلف المراتب وأسفلها وفي كل أركان الغرفة والغرف المجاورة فلم يجدها.

عاد واطمئن على عمه وسأل الممرضة عن المرأة التي رآها، ووصف لها شكلها فنفت علمها بأي امرأة بهذه المواصفات ورجحت ذلك بسبب ضغوط نفسيه بسبب حادث عمه، لكنه كان متأكد تمام التأكد أنه رآها بالفعل ولم يكن يحلم، وفي الأخير حكى لأسعد أثناء خروجه من المستشفى فقال له أسعد "المهم كيف حال عمك؟" وكأنه لم يسمع قصة المرأة، ففهم أنها عفريته لإحداهن وليست من البشر.

الغريب أن أحداثا عجيبة راحت تحدث مع صاحبنا فور أن قرر الكتابة عن الرعب واستمع لقصص أهالي القرية وحوادثها، فمثلا في الليلة الأولى سمع جرس بيتهم يرن قبيل الفجر، استيقظ متثاقلا وهو ينظر من النافذة ليرى من يرن الجرس في هذا الوقت المتأخر من الليل، فوجد أخويه الاثنين يلعبان في الشارع وحين دقق النظر وجد أخيه الأوسط يحمل أخيه الأصغر فوق كتفيه ويقفزان هنا وهناك، قرر أن ينزل ليفتح لهما الباب ويؤنبها على خروجهما في هذا التوقيت، وما إن أنار الغرفة ليرتدي ملابسه وجد أخويه كل واحد منهما في سريره نائما بعمق، صعق لوهلة ورجع ينظر من النافذة مرة أخرى ليتأكد مما رأي فوجد أخويه

يلعبان ويتقافزان وهما ينظران إليه نظرات حادة بابتسامة مكر، كأنه العفريت يريده أن ينزل الشارع ويستفرد به هناك.

استيقظ صاحبنا من نومه مفزوعا بعد هذا الكابوس المروع، جسده ينتفض ولا يستطيع السيطرة عليه، دقائق من الرعب مرت ثم استعاذ بالله من الشيطان الرجيم وعاد إلى النوم مرة أخرى.

تكررت الكوابيس على غير العادة مما جعلت صاحبنا يتساءل، لماذا أصبح كل هذا يحدث معه؟ هل الجن والعفاريت يضجرون ممن يكتب عنهم؟ فيزوروه في أحلامه ويقلقوا منامه؟

وببحث صغير على الانترنت وجد كل كتاب الرعب تقريبا يعانون من هذه الكوابيس، وكلهم يؤكدون أن قبل دخولهم عالم الرعب وكتابته لم يحدث ذلك معهم مسبقا؟ أهو العقل الباطن إذن أم ماذا؟

الغريب أن الكتّاب يحدث معهم ذلك ثم ينتقل إلى القرّاء، هم بدورهم يرون كوابيس لا تقل رعبا عما يراها الكتاب.

لكن صاحبنا لم يتراجع وقرر أن يكتب كل القصص التي سمعها..

حصلت معي هذه الحادثة من ثلاث سنوات وفي ليلة وفاة عمي تحديدا، عمي هو أقرب الناس إلي، ربما منزلته هي نفس منزلة والدي تماما، توفي بعد العصر وكان يوما عصيبا جدا علي، علينا كلّنا.

في العادة حين موت أحدهم وأثناء مراسم الغسل يقوم شباب العائلة بالذهاب إلى الديوان لفتحه وتنظيفه ورص الكنب والكراسي لاستقبال العزاء الذي يبدأ بعد الدفن مباشرة، وقد ذهبت مع أبناء عمومتي ثم تركتهم بعدها لألحق بالدفن وملابسي وشعري مليئان بالأتربة، لكن الناس لا تنظر لذلك أو تلاحظه حتى في هذه المناسبة.

تم الدفن بعد صلاة المغرب وتوجه والدي وأعمامي إلى الديوان وكنت معهم واستقبلنا عددا لا بأس به من المعزّين حتى جاءت الساعة العاشرة ليلا.

كنت ولازلت بملابسي المتربة، فقط غسلت وجهي ورأسي، وبعد أن هدأت الحركة أخبرت أبي أني سأعود إلى البيت لأغير ملابسي وأعود للديوان مرة أخرى، ولأن الديوان بعيد عن منزلنا والوقت متأخر رفض والدي ذلك وأمرني أن أنام، وفي الصباح أذهب للبيت لأستحم وأعود من جديد.

لكن في الصباح سيأتي آخرون وعلى أن أتواجد لأخذ واجب العزاء مثلي مثل الكبار، فانتظرت بعد أن نام والدي وقررت الذهاب والعودة دون أن يشعر بي أحد.

وقتها كانت الساعة تجاوزت الثانية عشرة، وهناك طريقان للمنزل؛ طريق طويل وطريق مختصر من ناحية الأرض الزراعية، فقررت أن آخذه وليتني لم أفعل.

الطريق يبعث الخوف والريبة في نفس أي إنسان يمشي فيه في هذا الوقت المتأخر من الليل، ولكني كنت في واد آخر، كنت أفكر في عمي والمواقف الجميلة التي ستبقى محفورة في ذاكرتي دائما، حتى أنني بكيت من جديد وأنا سائر.

بعد فترة من المشي شعرت بالعطش فجأة ولأني أعرف الطريق؛ قررت أن أتوقف عند زير الماء لأشرب منه، وحين وصلت رأيت رجلا واقفا في الظلام يشرب هو الآخر، تساءلت في نفسي عن تواجده هنا في هذا الوقت لكني لم أهتم به كثيرا فمصابي في عمي كان يشغل كل تفكيري، اقتربت من الزير وقلت السلام عليكم، لكن الرجل لم يرد السلام أو يلتفت حتى، كان واقفا بجوار الزير ويبدو أنه قد أنتهى من الشراب للتو، لكن لماذا لا يزال واقفا هنا؟

أمسكت الكوب وأنا أضعه داخل الزير عبأته بالماء وما إن رفعته لأشرب نظرت بطرف عيني إلى يساري في وجه الرجل الواقف بجواري تماما، كان وجهه أسودا وعيناه لونها أبيض، توقف الماء في حلقي واتسعت عيناي على آخرهما، نظر إلي وابتسم ابتسامة ماكرة وسرعان ما تحولت الابتسامة لصرخة اهتزت لها فرائصي وسقط قلبي بين قدمي، فألقيت بالكوب ورحت أجري هربا منه.

كلما التفتّ ورائي أجده يجري على قدميه مرة وأخرى أجده يركب عربة كارو يجرها حمار وهو يضربه ليسرع باللحاق بي، خوفي جعلني أجري كالطائرة، إلى أن وصلت إلى المنازل وانتهت البقعة الزراعية واختفى ذلك الكيان من خلفي.

دخلت البيت وجريت على غرفتي ألتقط أنفاسي والحمد لله أن أمي كانت نائمة حينها، فلو رأتني على هذه الحالة لأصابها الذعر أو لحدث لها مكروه.

بعد أن هدأت دخلت واغتسلت وقررت أن أعود في الصباح فمهما حدث لن أرجع في هذا الوقت.

وفي الصباح عدت ووالدي لم يلحظ أي شئ فقد ظن أني رجعت المنزل صباحا وعدت من جديد، وفي ذلك اليوم وفي الليل وبعد أن هدأت الحركة جلست مع

أبناء عمومتي كعادتنا في الديوان في آخر الليل نحكي ونتسامر قبل النوم، فأخبرتهم ما حدث لي.

قالي لي أحدهم وهو أكبرنا سنا أن العفريت الذي ظهر لي هو عفريت خيري، وأخبرني قصته أنه كان عائدا للمنزل بعربته الكارو وأثناء مروره على السكة الحديد علقت العربة ولم يستطع الحمار جرّها، وحاول خيري قدر الإمكان تخليصها من السكة الحديد دون فائدة، جاء القطار والناس تصرخ فيه أن يترك العربة والحمار لمصيرهما لكنه لم يفعل، وفي الأخير اصطدم بهم القطار جميعهم ومن حينها وعفريته يخرج كل فترة وفترة، وأن الكثير من أهالي القرية غيري قد راوه.

قديما كان هناك اعتقاد سائد في الصعيد وهو ألا يأتي أي فرد بأي نوع من أنواع الخردة القديمة إلى المنزل، وذلك لاعتقادهم أن هذه الخردة قد تحوي شبحا ما يسكنها، فتحدث بعدها أشياء غريبة في المنزل. وبرهن الكثيرون على ذلك بالعديد من القصص..

فيقول أحدهم وهو رجل شارف على الخمسين من العمر، حين كنت صغيركنا نحن الأطفال نلعب لعبة مكونة من خمسة أحجار، أي حبات من الزلط متوسطة الحجم، اللعبة هي أن توضع الزلطات على الأرض وتمسك واحدة منهن وترفعها في الهواء، وقبل نزولها تلتقط واحدة من الموجودين على الأرض وتمسك التي قذفتها في نفس الوقت قبل أن تسقط، وإن نجحت تمسك باثنان ثم ثلاث وهكذا، وإن أخفقت يأخذ منك الدور شريكك في اللعب.

لعبة شهيرة جدا الكل يعرفها ولعبها، وفي يوم من الأيام قررت أن أجلب بضع زلطات بيضاء جديدة من عند شريط القطار، فالزلط هناك جميل الشكل ويمكنني الاحتفاظ به لعدة أيام.

وفي ذلك اليوم وبعد أن جلبتهم قبيل المغرب وضعتهم تحت السلم في الدور الأرضي وفي نيتي أن نلعب بهم أنا وأصدقائي في الصباح كعادتنا، لكن هذه الليلة حدثت معنا أمور لازالت محفورة في ذاكرتي إلى يومنا هذا على الرغم من مرور حوالي أربعين سنة على هذه الأحداث.

بعد العشاء بفترة ليست بالقصيرة وبينما الكل في غرفته، أبي وأمي في غرفتهما، و أنا وإخوتي في غرفتنا وجدي وجدتي في غرفتهم، سمعنا صوت شيء ما يركض فوق السلم، صاعدا مرة وهابطا مرة، محدثا جلبة شديدة كأنه رجل وزنه مئات الكيلومترات أو حيوان ضخم هائج.

جاء والدي إلينا وهو ينظر لعله يرى أحد إخوتي غائبا وهو من يفعل ذلك فوجدنا جميعا مستيقظين وفي أماكننا وجلين نستمع لوقع الخطوات في خوف، ترك والدي الباب مفتوحا وغاب للحظات يبدو فيها أنه ذهب لوالده ووالدته يستكشف أمرهما فوجدهما في غرفتيها، إذن من هذا الذي يجري فوق السلم؟

عاد إلينا من جديد وهو يفحصنا مرة أخرى فوجدنا جميعا في أماكننا، بعد لحظات دخلت أمي وجلست بجوارنا لنطمئن بها، وفور دخولها سمعنا الأصوات عادت من جديد بعد أن هدأت، لكن هذه المرة كانت على سطح المنزل كأنه ثور هائج يجري فوق السطح يكاد يهدمه وذرات الغبار تتساقط منه، يضرب الأرض بقدميه هنا وهناك.

أبي لا يخاف من هذه الكيانات فراح يبحث عنه ويستكشف أمره، وإذا صعد إلى السطح يسمع الأصوات على السلم وإذا نزل السلم حتى الدور الأرضي تعود الأصوات فوق السطح، هدأ الصوت لدقائق كان أبي غائبا فيها وفجأة سمعنا صوت ضربات شديدة على باب غرفتنا، انتفضنا جميعا واختبأنا في أمي من شدة الخوف، وجاء أبي بعدها مسرعا ليطمئن علينا، وحين تأكد أنها ألاعيب من هذه الكيانات سمعته في الخارج يتحدث إلى الفراغ وهو يقول"لماذا كل هذا؟" فتزداد الأصوات ثم يعود أبي ويقول"لا يصح هذا يا رجل، ماذا فعلنا لك؟"

الأصوات تهدأ حين يتحدث أبي كأنها تسمعه وبعد أن ينهي جملته تعود من جديد، وفي الأخير دخل أبي غرفتنا ووجه كلامه إلينا جميعا وسألنا بلهجة حازمة آمرة "من منكم اليوم جلب معه أي شئ من الخارج؟"

كلنا صمتنا نفكر وأنا معهم، لم أكن أعلم أن مجرد أحجار صغيرة بإمكانها أن تحدث كل هذه الجلبة، كرر أبي سؤاله وكأنه متأكدا أن هذه الأفاعيل لا تحدث إلا عن طريق شئ ما أتى به أحدنا للمنزل، كرر سؤاله بلهجة أشد فأخبرت أمي بصوت منخفض أني جلبت بعض الأحجار من أحجار سكة القطار فسألتني صارخة "أين وضعتهم؟"

نظر أبي لأمي مستفهما لأنه لم يسمعني فحكيت له وأخبرته أني وضعتهم تحت السلم، نظر لي للحظات يريد أن يأكلني بعينيه ثم نزل مسرعا ليأخذهم ويلقيهم في مكان بعيد.

العجيب أنه لم يجدهم كلهم، وجد اثنين فقط على ما أتذكر، والباقي ظللنا نبحث عنه طوال اليوم التالي، منهم من وجدناه على السطح ومنهم مخبأ في الصالة ومنهم تحت الكنبة التي ينام عليها جدي وأماكن شتى في المنزل مع أنني

متأكد أني وضعتهم جميعا في مكان واحد، وبعد أن جمعناهم أخذهم أبي وأعادهم لمكانهم واختفت الأصوات من وقتها ومن بعدها لم آتي بأي شئ سواء أنا أو أيا من إخوتي من خارج المنزل.

أيضا من الحكايات التي حدثت ومشابهة للأشياء التي ما إن تدخل المنزل إلا وتحدث فيه أمور غريبة لا تنتهي إلا بإخراجها مرة أخري؛ هي قصة حصلت مع والد أحدهم فيقول: والدي مزارع بسيط وله صديق يعمل في منطقة تابعة للقوات المسلحة، كان والدي يطلب من صديقه مرارا وتكرارا أن يأتيه ببيادة حتى ولو قديمة ليلبسها في الزرع، فهي سميكة قوية وستحمي قدميه من الأشواك العالقة في الزروع والتي تجرح قدميه باستمرار.

لكن صديق والدي كان يقول له دوما أنه ليس ثمة عساكر في مكان عمله ولا يعرف أحد يلبس بيادة أو لديه واحدة قديمة يطلبها منه، المنطقة بالطبع تخص القوات المسلحة، لكن معظم العاملين فيها مدنيين، وهو لن يطلب مثلا بيادة المقدم أو العميد رؤساء المنطقة.

وفي إحدى المرات و أثناء أجازة صديق والدي، جلب معه بيادة بحالة جيدة وأعطاها لوالدي وقال له أنه وجدها وسط مجموعة من الخردوات في المخازن هناك. طار أبي فرحا لكن فرحته تبددت بعد ذلك بسبب ما حدث في منزلنا من حوادث غريبة.

منزلنا دور أرضي وننام جميعا في مكان واحد كما هي العادة قديما، وكان أبي يترك غرفته وينام معنا أنا وإخوتي في صحن المنزل المفتوح للسماء مباشرة، في اليوم الأول استيقظ والدي على صوت الشباك يفتح ويضرب الحائط بقوة، تعجب من ذلك فالشباك من الخشب العتيق ولا يمكن لنسمات الهواء فتحه

بهذه الطريقة مع أنه لم تكن هناك نسمات هواء من الأساس، لكنه على كل حال قام وأغلقه.

وفي الصباح استيقظت أمي فوجدت باب المنزل مفتوحا، نظرت إلينا فوجدتنا جميعا نغط في النوم بما فينا أبي، إذن من فتحه وحرك المزلاج الحديدي من مكانه؟

سألتنا فأنكرنا جميعا، وفي اليوم الثاني تكررت نفس الأشياء مع تطورات جديدة، مثلا أو اني الطهي تقع من تلقاء نفسها، الإضاءة تعمل وتنطفئ من تلقاء نفسها أيضا وغيرها من الأمور المحيّرة.

في اليوم الثالث وفي نفس التوقيت انفتح الشباك مرة ثالثة، فقام أبي وأغلقه وقرر ألا ينام وأن يوهم الجميع أنه نائم، لكنه يقظ يتابع ما يحدث، ليرى من منا سيفتح الباب أو يذهب للمطبخ ليلا!.

العجيب أنه رأى البيادة تتحرك من مكانها من تلقاء نفسها كأن أحدهم يرتديها وبمجرد أن وقفت بجوار الباب فُتح بالتدريج، وبعدها عادت إلى مكانها ببراءة وهدوء كأنها لم تفعل شيئا.

أبي من النوع الذي يخاف من هذه الأمور وليست لديه الجرأة ليواجهها وحده، ففوجئت به يوقظني قبل الفجر وملامحه متغيرة على غير العادة، وقال لي تعال معي بسرعة، لم أفهم إلى أين أو ماذا سنفعل في هذا التوقيت فسألته متثائبا، لكنه صرخ في وجهي وأمرني أن ألزم الصمت وقال لي هات البيادة معك.

خرجنا أنا وهو ولا أحد في الشارع غيرنا، وفي مكان بعيد قال لي ارم البيادة فرميتها دون أن أسال، وفي طريق العودة كان قد هدأ بعض الشيء فقص على ما

رآه من البيادة وكيف أنها هي من فتحت الشباك والباب بالأمس وسبب كل الأشياء الغريبة التي حدثت في بيتنا في الثلاثة أيام المنصرمة.

أما بالنسبة لأغرب قصة سمعها صاحبنا فهي ما قصها عليه أحد أصدقائه، حيث قال وصلتني رسالة من فتاة من إحدى المجموعات الفيسبوكية، في البداية لم أفهم ماذا تريد إذ يبدو الخوف والتوتر واضحا جليا في كلماتها، بدأت تسألني أسئلة عن الجن وكيف يعرف الشخص أنه ممسوس، و أيضا كيف يتأكد أن منزلهم مسكون بأحد هذه الكيانات أم لا، بصراحة أنا أحرج من هذه الأسئلة لقلة علمي بأجوبتها، فمعظم الناس يظنون أني لمجرد كاتب رعب متمرس فبالتأكيد أنا على دراية كاملة بهذه المواضيع وعندي مخزون هائل عن العالم الآخر، كما يظن قلة منهم أني ربما أعرف كيفية التحضيروالصرف، فأجبتها بكل ما أعرف مستعينا بالمخزون البسيط من المعلومات التي لدي، لأشبع فضولها على ما أعتقد.

وفي وسط كلامنا سألتها عن سبب كل هذه الأسئلة فأجابت إجابة صدمتني جدا، قالت بكل ثقة وخوف في نفس الوقت " لأني أشعر أن أحدهم معي في غرفتي، وليس مجرد إحساس، هناك أشياء تتحرك من أماكنها في غرفتي بمجرد أن أطفئ النور و أتجه للسرير، يعني مثلا كرسي المكتب الذي أذاكر عليه يتحرك من مكانه و أنا أراسلك الآن، في البداية كان في مكانه الطبيعي، وحين أنظر للهاتف وأكتب لك وأعيد النظر إليه من جديد أجده يبتعد عن المكتب ويقترب للسرير، و أنا من شدة الخوف لست قادرة على التحرك من مكاني والخروج من الغرفة، وأخشى الصراخ فقد يصيبني مكروه"

لم أرد على رسالتها الأخيرة لمدة دقيقتين أو ثلاث، كنت خلالهم دخلت على صفحتها الشخصية لأرى معلومات أكثر عنها، ربما تكون مريضة أو صغيرة تتوهم وليست مدركة لما تقول، وجدتها من مواليد 95 وفي السنة الأخيرة من كلية آداب إنجليزي، شيء ما داخلي قال لي أن أصدقها، عدت وكتبت لها، حاولي الهدوء و اقرئي المعوذتين و آية الكرسي.

رأت الرسالة لكنها لم ترد، وبعد قليل وجدتها تكتب وتمسح تكتب وتمسح، استمر الحال على هذا المنوال لأكثر من خمس دقائق و أنا أخمن ماذا تريد أن تقول ثم تتراجع عنه في الثواني الأخيرة. بالتأكيد هناك شئ هام وتراجع نفسها قبل أن تقوله، وأخيرا قالت "لا أعرف ماذا يحدث للهاتف، كلما حاولت الكتابة يمسح ما كتبته من تلقاء نفسه، أنا بدأت أفقد الوعي وأشعر بالهواء الساخن من حولي وتنميل في جسدي و.."

قاطعتها قبل أن تكمل كلامها وقلت لها أن تخرج من جميع التطبيقات وتفتح تطبيق الكاميرا وتصور صور عشوائية في اتجاهات مختلفة وترسل الصور لي دون التدقيق فيهم، هذه طريقة فعالة بعض الشيء في التعامل مع هذه المخلوقات.

انتظرتها عدة دقائق لترسل لي الصور مثلما أخبرتها، هي تجربة بسيطة وقد تكون ليست أكيدة في رؤية الجن، إلا أنها فعالة ومجربة مع عدة أشخاص، منهم قصة حدثت مع صديقي في منزلهم، قال لي أن هناك بعض الأحداث الغريبة التي تحدث معهم وليس هو فقط من يشعر بذلك، والدته وإخوته البنات أيضا لكنهم لا يخافون.

أحيانا مثلا وهو نائم يسمع صوت اهتزاز السرير الذي بجوار كأن هناك طفلا يلهو ويلعب فوقه مع أنه وحيد تماما في الغرفة ويقظ جدا، أي ليس في مرحلة من

مراحل النوم، والصوت لا يهدأ إلا إذا صرخ صديقي طالبا بعض الهدوء لأنه عائد من العمل مرهق ويحتاج للراحة، أقسم لي صديقي أن هذا يحدث فعلا وهو غني عن القسم لأنه أعرفه من مدة والكذب ليس من صفاته.

حكى لي أيضا أنه في مرة كان جالسا في حديقة منزلهم وأسرته كلها مسافرة ولا أحد في البيت غيره، لأنه لديه امتحان في صباح الغد ثم سيلحق بأسرته ليستمتع بالمصيف، كان بجواره كلبه وفجأة راح الكلب ينبح ناظرا إلى البيت، نظر صديقي للمكان الذي ينظر له الكلب لكنه لم ير شيئا، فجأة جاءته حيلة رآها في أحد الأفلام وقرر تجربتها، أخرج هاتفه والتقط عدة صور عشوائية للمنزل في الاتجاه الذي ينظر إليه الكلب، وحين انتهى وأثناء مراجعته للصور رأى امرأة تقف في شرفة المنزل تنظر إليه واختفت الصور بعدها مباشرة، ولهذا أخبرت الفتاة أن تفعل مثل صديقي لكي أتأكد إذا كان هناك شئ يسكن معها أم لا، وطلبت منها أن ترسل الصور بدون أن تنظر وتدقق فيهم لأنها لو رأت أي شيء ممكن أن يصيبها مكروه، خاصة في مثل هذه الحالة غير القادرة على تحمل أية مفاجآت.

مرت الدقائق صعبة وهي ترسل لي الصور، أرسلت أكثر من عشرين صورة لأماكن مختلفة من غرفتها منها ما كان واضحا ومنها من كان مذبذبا نتيجة خوفها، دققت في الصور لعل وعسى ألمح طيفا مثلا أو أي شئ غريب فلم أرى شيء، كنت خائفا مثلها لكني استجمعت قواي وأنا أتقمص دور الطبيب المعالج أو الخبير النفسي، اطمأننت وأردت أن أطمئنها هي أيضا وقبل أن أكتب وجدتها عادت تكتب وتمسح من جديد ومن الواضح أنها فقدت السيطرة على هاتفها مرة أخرى.

حينها خطرت في ذهني فكرة مجنونة لا تحدث إلا في الخيال، كتبت لها اتركي الهاتف بجوارك ولو كان فعلا هناك شئ غريب في الغرفة يحاول التشويش على

رسائلنا فربما سيكتب من تلقاء نفسه ويشرح لي ماذا يريد، لا تفتحي الهاتف إلا بعد نصف ساعة من الآن ولنرى ما سيحدث.

بعد أن رأت الرسالة هدأ كل شيء، لكن بعد دقائق ظهر لي أن هناك كلمات تكتب، ولأول مرة شعرت بالرعب الحقيقي، أحدهم يكتب ليراسلني، وتمنيت أن تكون هي من يكتب ذلك، لكني فوجئت برسالة مكتوب فيها "حقا أعجبني ذكاءك" ثم راح يكتب من جديد.

"أدعى سمير، قتلت منذ سبعة أعوام، روحي هائمة في هذه العمارة من حينها، لم أضر أحد أو فكرت في ذلك حتى، أقضي الليل متجولا هنا وهناك إلى أن ضقت ذرعا ولم أعد احتمل، ولكي ترقد روحي في سلام يجب أن أدفن في مدافن عائلتي، خدمة يمكنك تأديتها من أجلي، ولن ينسى لك القدر حسن صنيعك"

قرأت الرسالة وضربات قلبي تسارعت، وريقي جف بعد أن تأكدت أني وقعت في مأزق ممكن أن يكون فوق طاقتي واستيعابي، رفضت الشعور بالندم لأني عرضت المساعدة على هذه الفتاة المسكينة، ويبدو أن بسببها قد آن الأوان لفعل شيء مفيد في حياتي التي ليس فيها أي شيء مفيد، فكرت وفكرت ماذا أكتب له فوجدت نفسي أحاول معرفة المزيد من التفاصيل عنه، فكتبت له "من قتلك؟ وكيف؟ ولماذا قتلت؟"

بعد لحظات جاء الرد..

"انفصل والداي منذ أمد بعيد، كنت أسكن مع أمي في الطابق الأرضي لهذه العمارة، تخرج للعمل صباحا، وأحيانا كانت تعمل في شقق العمارة كخادمة، تطبخ وتمسح وتغسل لتوفر لي ولها لقمة العيش، وكانت في العادة تعود قبيل

العصر، وفي صبيحة يوم من الأيام وبينما أنا جالس بمفردي أتناول فطوري الذي حضّرته لي قبل

مغادرتها سمعت صوت حركة أقدام في الشقة، خرجت من المطبخ متجها للصالة فرأيت ثلاثة لصوص، يبدو من أشكالهم أنهم سكارى أو منتشون، لصوص في وضح النهار تسللوا من نافذة حجرتي لأنها تطل على الشارع مباشرة، كان ذلك أيام الثورة بعد انعدام الأمن والأمان، فعاث اللصوص والمجرمون في الأرض فسادا.

انتبه أحدهم حين رآني و اقفا بجوار مدخل المطبخ لا أفعل شيئا سوى النظر إليهم، فقد امتزج عندي الخوف بالدهشة ومنعاني من إصدار أي ردة فعل لما أراه، انتبه اللصين الآخرين أيضا فأسرع أحدهما وبقفزة واحدة كان و اقفا خلفي، كمم فمي بكلتا يديه خوفا من أن أطلق صرخة استغاثة فيفتضح أمرهم، خوفه واضطرابه جعلاه يضغط بكل ما أوتي من قوة ونسي أنه بسبب يده الضخمة، قطع عني كل سبل التنفس و انعدم دخول الهواء لرئتي، ورحت أتشنج لا إراديا محاولا التقاط أي جرعة هواء، لكن اللص ظن أني أحاول الفرار فزاد من ضغطه أكثر وأكثر وما هي إلا لحظات حتى فارقت روحي جسدي، لا أعلم ماذا حدث بعدها ولكن أعلم أني مدفون الآن في الغرفة الخاصة بالخردوات والأشياء القديمة وغيرهم، في غرفة لم نكن نستعملها لأنها كان تطل علىها كل نوافذ التهوية الخاصة بسكان العمارة، ويبدو أن اللصوص وجدوا من أرضها الطينية اللينة مكانا مناسبا لدفني فيها، وكل ما أطلبه منك هو نقل رفاتي بجوار أمي في مدافن قريتنا، ماتت أمي حسرة عليّ بعد سنوات قليلة، قريتي هي قرية الشيخ صالح يمكنك البحث عنها إن كنت لا تعرفها"

انتظرت الفتاة مرة أخرى حتى تمسك هاتفها كما أخبرتها من قبل، المتبقي على الوقت ربع ساعة، محادثتي مع سمير لم تستغرق طويلا، فاستغليت الوقت المتبقي في التفكير، هل أساعد هذا الطفل و أقحم نفسي في مشاكل ومخاطر الله وحده يعلمها؟ أم هل أحظر هذه الفتاة وكأن شيئا لم يكن وأحاول إقناع نفسي أنها مجرد مزحة سخيفة من إحداهن؟

ويبدو أني سرحت كثيرا ولم أنظر للوقت المتبقي حيث وجدت رسالة منها تقول"هل ستفعل؟ هل ستساعده حقا؟ سأذهب لأوقظ أبي وأخبره بكل شيء، الموضوع خطير"

أجبتها مسرعا وطلبت منها ألا تفعل ذلك، وأن تجعل الموضوع سرا بيننا وخاصة أني قررت مساعدة هذا الطفل. طلبت منها عنوانها فسكتت للحظات كأنها تراجع نفسها هي الأخرى وفي الأخير أرسلت لي العنوان.

المسافة بين محافظتينا لم تكن بعيدة، فقط ساعتين أو ثلاثة إن كان هناك زحام، حددت معها ميعاد وأخبرتها أني سأزور عمارتهم في الليل لتكون المهمة سهلة، وفي اليوم الموعود سافرت ومعي شنطة متوسطة الحجم فارغة لأضع فيها رفات الطفل، ووضعت بها مجرفة بيد صغيرة لتساعدني في الحفر.

و أنا في طريقي إليها كنت أراسلها وأخبرها بمكاني وببعض الأشياء التي تفعلها كدور لها في هذه المهمة، مثلا أن تراقب المكان وتخبرني بما يحدث خارج العمارة أول بأول، كي أستغل الفرصة للدخول والخروج دون أن يشك أحدهم بأمري، خاصة والشنطة التي أمسكها في يدي والتي ممكن بسببها ينتهي مستقبلي قبل أن يبدأ، وجدت منها موافقة على كل كلمة أقولها، في البداية كانت خائفة ومترددة، أما الآن فهي شخص مختلف تماما، تشجعت وتحمست فجأة، لا أعرف لماذا؟ هل

هي تحب المغامرات؟ أم أن قلبها رق لذلك الصبي وتحاول مساعدته كما أحاول أنا أم أن هناك شئ آخر أجهله؟

وصلت أسفل العمارة، كانت الساعة حوالي الحادية عشرة ليلا، حركة الناس قليلة أمام واجهتها لأنها لم تكن في الشوارع الرئيسية وهذا من حسن حظي، أخبرتها أني وصلت فوجدتها بعد دقائق تخرج من باب العمارة وتتقدم نحوي، فتاة هادئة الملامح متوسطة الطول والجمال مثل أي فتاة عادية، وبدون أي مقدمات طلبت منها أن تختبئ في أي مكان وتراقب منه المدخل وتخبرني بكل جديد، ثم تركتها واتجهت للشقة الموجودة في الدورالأرضي والتي قتل ويرقد فيها سمير.

كان باب الشقة قديما ربما من كثرة الأتربة العالقة به، على عكس أبواب العمارة وأرضيتها وجدرانها، أخرجت عدة مفاتيح من جيبي ورحت أجربها الواحد تلو الآخر، توليفة من المفاتيح طلبتها من صديقي بعد أن أخبرته بما سأفعل، رفض فكرتي عدة مرات، وفي الأخير جاءني بها من دكان والده الحرفي صناعة المفاتيح على وعد بأن أعيدها إليه مرة أخرى في الصباح.

لا أعرف لماذا بدأت قدماي ترتعدان وأنا أبدأ بتجربة المفتاح تلو الآخر، باب الشقة في ركن منزوي عن مدخل العمارة ومن المفروض أن يبعث فيّ بعض الاطمئنان، لكن لم يحدث، بدأ الأدرينالين يسري في جسدي وسط محاولاتي لفتح الباب، وكلما فشل مفتاح ازدادت رعشة يدي وقدمي معه، بدأت ضربات قلبي تزداد وشعرت إن سألني أحدهم ماذا أفعل هنا سأخبره بكل شئ بعد سؤاله بثانية واحدة.

إن رآني أي شخص في هذه الحالة سيشك في أمري بالتأكيد، رن هاتفي فجأة فزاد من ربكتي، يبدو أن هناك شئ ما في الخارج، أخرجت الهاتف مسرعا، كنت

الفتاة، وعرفت منها أن أحدهم سيدخل العمارة وعلى بعد خطوات منها، من شدة خوفي أفلتت أعصابي المفاتيح فوقعت أمام الباب و أنا اختبأت خلف عامود ضخم، وبعد لحظات سمعت وقع خطوات أحدهم يدخل العمارة ومعه فتاة صغيرة يحاول ملاطفتها، ازدادت دقات قلبي و أنا أدعو الله ألا يلاحظ المفاتيح التي سقطت أمام الباب، إن تقدم وأمسكها فبالتأكيد سيراني بعد أن يولّي وجهه مرة أخرى.

مرت اللحظات ثقيلة، ثم سمعت وقع خطواتهم على الدرج فارتحت قليلا وهدأت و انتظرتهم حتى بعد أن سكن صوتهم بدقائق وعدت من جديد.

جربت وجربت حتى استسلم لي الباب ففتحته ودخلت مسرعا وأغلقته من جديد و أنا أحاول السيطرة على ما تبقى لدي من أعصاب وقوة تماسك.

المكان مظلم جدا لدرجة أني لا أرى يدي أمام عيني، كنت خائفا جدا، أقنعت نفسي أن المكان الذي أنا فيه الآن سأتواجد في واحد مثله بعد موتي، الفارق الآن أني حي ويمكنني اتخاذ القرار سواء كان صائبا أم لا، أما بعد موتي فلا قرار يؤخذ ولا حيلة تنفع.

الجو بارد ورائحة عفنة تملأ المكان، أخرجت هاتفي وعلى ضوئه حاولت البحث عن لوحة الكهرباء الخاصة بالشقة والتي غالبا ما تكون في الصالة التي أقف فيها الآن، كنت خائفا وخوفي يزيد كلما أفكر أن روح سمير ربما تكون معي الآن تراقبني وتراقب تحركاتي، تنظر إلى من إحدى أركان الصالة، تحركت و أنا أسلّط الهاتف هنا وهناك على الحوائط، صالة متوسطة الحجم مدهونة بلون زيتي خفيف، بها بعض الأثاث المغطى بملاءات بيضاء، وجدت لوحة التحكم أخيرا تغطيها شباك العنكبوت، أدخلت يدي محاولا اللعب في القوابس علّ النور لا يزال

موجود في الشقة ولم تقطعه الوزارة عنها بعد، حاولت وحاولت لكن بدون فائدة، وفي اللحظة التي أخرجت فيها يدي وجدت الإضاءة قد عادت، لم تكن إضاءة الصالة أو الشقة كلها، بل كانت إضاءة غرفة واحدة فقط، ويبدو أنها الغرفة المدفون فيها سمير ولا أعرف كيف أضيئت!.

مهما حاولت شرح درجة الرعب التي وصلت إليها في هذه اللحظة فلن أستطيع، الكلام سيعجز عن الكلام، المفاجأة جعلتني أتراجع للخلف عدة خطوات ونبضات قلبي ازدادت بسرعة، ووقفت لثواني محاولا استيعاب ما حدث، وبخطوات وئيدة رحت أتقدم ناحية الغرفة وأنا أبلع ريقي كل ثانية ألف مرة، اقتربت منها جدا وعلى بعد متر أو أكثر منها انطفأت الإضاءة، والحمد لله أن إضاءة هاتفي كانت لا تزال تعمل، لأني نسيت إغلاقها وإلا لسقطت جثة هامدة من هول المفاجأة.

قررت أن أترك المكان بأسره فقلبي لا يحتمل مفاجأة ثالثة، العمر ليس للبيع ولا للمغامرة، توجهت نحو الباب بعد أن اتخذت قراري، لكن فجأة وجدت إضاءة الغرفة ترتعش، تأتي وتذهب تأتي وتذهب، كأن روح سمير تعتذر لي وتترجاني ألا أغادر بعد المشوار الطويل الذي قطعته، كنت قد اتخذت قراري وتوجهت نحو الباب وفتحته لكنه لا يفتح، أنا متأكد أني لم أغلفه بالمفاتيح مرة أخرى بعد دخولي واكتفيت بالمزلاج فقط لكنه لم يفتح، لماذا؟ لا أعرف.

جربت كل المفاتيح من جديد وأنا أحاول الظهور بمظهر الواثق المطمئن غاض الطرف عن الإضاءة الأشبه بالألعاب النارية التي تأتي من خلفي، جربت كل المفاتيح لكن لا فائدة، حاولت فتح الباب بكل الطرق دون فائدة، حتى أني قررت

أن أطرقه كما المجنون طالبا المساعدة لكني تراجعت و أنا أفكر في الأسئلة التي ستوجّه لي والتهم أيضا، بل وربما تفتح قضية القتل من جديد وأرتديها أنا.

فجأة و أنا أفكر فيما سأفعل سمعت صوت حركة خفيفة في الصالة من خلفي، لم أستطع النظر لكن الحركة زادت وبهدوء وجهت وجهي نحوها محاولا السيطرة على نفسي كي لا أصرخ طالبا الاستغاثة، فوجدت أكثر مشهد مرعب رأيته في الحقيقة والأفلام، الأثاث المغطى بملاءات بيضاء يتحرك، هذه تذهب هنا وهذه هناك وتعود من جديد، واثنان ارتطما في بعضهم البعض ووقعا على جنبهما على الأرض، بعد ذلك عادا كما كانا وراحا يلعبان مثل الباقين، لحظتها لعنت نفسي والفتاة وكل شئ جعلني أغامر وآتي هنا، وفهمت رسالة سمير التي معناها "لن تغادر المكان حتى تأخذني معك".

بعدها ثبت نور الغرفة وتوقف عن الرقص وكل الأشياء التي كانت تتحرك عادت إلى أماكنها والتزمت بالأدب وكرم الضيافة، تمكنت السيطرة على أعصابي وخوفي رويدا رويدا، تذكرت الحقيبة التي كانت معي، والموجودة بجوار الباب من لحظة دخولي إلى الآن، عدت والتقطتها وأكملت طريقي بخطوات بطيئة نحو الغرفة المشؤومة.

على بعد خطوة من الباب سمّيت الله للمرة الخمسين تقريبا ودخلت، مساحتها ضيقة جدا بسبب الأشياء الملقاة هنا وهناك، منها ما هو أثاث قديم متهالك ومنها ما هو أدوات للسباكة وغيرهم، كنت أحتاط و أنا أمشي وسط هذه الأشياء فلا موضع لقدم بينهم.

لكن أين سأحفر؟

سؤال لم أطرحه على نفسي إلا الآن، وكيف سأعرف المكان الصحيح المدفونة تحته الجثة؟

هل سأحفر الغرفة بأكملها؟

لن يكفيني حتى الصباح إن فعلت ذلك.

ماذا سأفعل؟

لمحت كرسي متهالك قدماه الخلفيتين مكسورتين ومسنود على الحائط في ركن الغرفة فمشيت نحوه وألقيت جسدي فوقه، كنت محتاجا لبعض الراحة بسبب ما مررت به هذه الليلة واستعدادا لما سأمر به في نفس الليلة أيضا.

جلست واضعا يداي فوق ركبتاي ورأسي مدفون بينهما، أفكر ماذا أفعل، وبينما أنا كذلك لمحت بطرف عيني بعض الأشياء المتناثرة تتحرك بهدوء مبتعدة عن بعضها البعض بهدوء غريب دون أن تصدر صوتا، يبدو أن روح سمير تحاول جاهدة السيطرة على ما تبقى لي من أعصاب وتحاول مساعدتي في صمت، لحظات وتكوّنت دائرة وسط هذه الأشياء المتباعدة، جثة سمير مدفونة هنا إذن.

لم أضيع الوقت، فتحت الحقيبة وأخرجت المجرفة ورحت أحفر في المكان الذي خلا للتو. من الواضح أن اللصين كانا مستعجلين جدا لدرجة أن عظام الجثة ظهرت لي بعد عمق نصف متر أو أكثر بقليل، كيف طاوعتهم قلوبهم إخفاء طفل عن والدته حتى لو كانت جثة؟ ماذا فعلوا بعد ذلك وكيف شعروا؟ هل عادوا إلى أهاليهم وحضنوا أطفالهم وتناولوا العشاء معهم؟ هل بكوا وندموا واعترفوا بجريمتهم حتى أمام أنفسهم؟ لا أظن.

حفرت حول الجثة بالكامل بالمجرفة مرة وبيدي مرة كي لا أكسر عظامها دون قصد، وحين أصبحت بالكامل أمامي فتحت الحقيبة ووضعتها بجانبي.

نظرت للعظام بخوف، كنت خائفا من ملمسها، كلما اقتربت يدي منها تبتعد عنها في اللحظات الأخيرة، لماذا لم آتي بقفازات معي؟ لعل روح المغامرة أنستني ذلك، أخيرا قمت وأتيت بملاءة من اللاتي يغطى بها أثاث الصالة واستخدمتها ونقلت الجثة في الحقيبة التي بالكاد اتسعت لها، وضعت الملاءة فوقها وخرجت من الغرفة وخلف باب الشقة راسلت الفتاة إن كان أحدهم في الشارع فقالت لا فخرجت على الفور، وما إن خطت قدماي الشارع شعرت بجبال من الهم قد انزاحت عن عاتقي.

ما إن رأتني الفتاة حتى جاءتني تمشي بهرولة وسألتني ما حدث لي بالداخل؟، لكني لم أكن في مزاج يسمح بالشرح أو الحديث، فطمأنتها بكلمات مقتضبة بأن كل شئ على ما يرام والجثة في الحقيبة وسأحاول دفنها اليوم قبل طلوع الشمس وتركتها وذهبت.

كنت أمشي في الشوارع كما التائه، لا أعرف أين أنا، وجدت سيارة أجرة سائقها يقف بجوارها يتحدث في الهاتف، تحركت تجاهه وعندما رآني توقف عن الكلام ونظر لي بعينيه منتظرا ما سأقول، سألته إن كان بإمكانه أن يقلّني إلى موقف السيارات؟، فأومأ برأسه وأنهي المكالمة بسرعة وهو متجه إلى مقعده.

الحركة في موقف السيارات كانت بالطبع بطيئة لتأخر الوقت، بحثت بين السيارات عن الميكروباص الذي سيتجه إلى المحافظة التي بها قرية الشيخ صالح، وجدته وركبت في الكراسي الأخيرة ووضعت الحقيبة على كرسي بجواري أسفل النافذة.

عند كل كمين شرطة كانت فرائصي ترتعد وقلبي يسقط بين قدماي مع أنه لم يكن هناك تفتيش أصلا، أمين شرطة يشرب شاي في ركن من الأركان، عسكري جالس مطرق الرأس يغالب النوم وهو يرتدي الخوذة والسلاح وكامل عدّته، لكن كل ذلك لم يمنع خوفي الشديد من التفتيش أو حتى نظرات الشك نحو الحقيبة.

رحت أفكر و أتخيّل و أنا أمشي في قرية الشيخ صالح التي لا أعرفها ويسألني أحدهم مثلا من أنت؟ وماذا تريد؟ وما يوجد في هذه الحقيبة؟ مجرد التخيل فقط كان يجعل بطني تؤلمني، فكيف إذا رآني أحدهم أدخل مقابرهم؟

كانت الساعة الرابعة فجرا حين وصلنا، لا أحد في الطرقات ومجرد التفكير في الدخول إلى المقابر في هذا الوقت كفيل بإنهاء كل ما بدأت فيه، بل ربما كفيل بإنهاء حياتي، فقلبي لا يحتمل مفاجأة أخرى من شبح آخر و أين؟ في المقابر!

من حسن حظي أن المقابر بجوار موقف السيارات، لكني لن أدخلها في هذا التوقيت، التفت حولي فرأيت قهوة شعبية صغيرة بعيدة بعض الشيء، هي خير وسيلة لقضاء هاتين الساعتين حتى طلوع الشمس، توجهت إليها وجلست في مكان منزوي كي لا يراني الكثير و أثير تساؤلاتهم فأنا أعرف أهل القرى.

جاءني صبي صغير على عينيه آثار النوم، خمنت أنه ابن صاحب القهوة ويساعد والده مثلا، لم يسألني ماذا أشرب، بل وقف أمامي يحاول النظر لي في بلاهة وتبين ملامحي مستكشفا وجهي الجديد، طلبت منه كوب من الشاي فعاد بعد أن هز رأسه وكأنه نسي ما طلبت منه.

كل ربع ساعة كان يدخل شخص أو اثنين، عرفت من الحديث المنتشر حولي أن كل هؤلاء سائقي سيارات، وهذا ميعاد عملهم وبدء يومهم، بدأت أشعر بالنوم

يداعبني والإرهاق ينال مني، تخيلت نفسي لولا هذه المغامرة لكنت الآن نائما في سريري أتقلب في أركانه ناعما بالدفء.

طردت هواجس الشيطان وقلت لنفسي أني في عمل خيّر بالتأكيد سيجازيني الله عنه خيرا في الدنيا والآخرة، وفخرت بنفسي و أنا أشجعها كنوع من المواصلة والثبات على ما مرت وستمر بمر.

رائحة السجائر والشيشة ملأتا المكان، كنت أختنق و أنا أخرج إلى الشارع كل فترة وكأني أتحدث إلى الهاتف وأختلس النظر للسماء منتظرا إعلان الشمس عن قدومها، مر الوقت بطيئا حتى تسللت أخيرا أشعة الشمس وراح نورها يتسلل إلى القرية معلنا عن قدومها، دفعت حساب الشاي والقهوة والشاي، وخرجت.

أمام المقابر وبجوار بوابتها مررت باثنين يتكآن على سورها بمجرد أن شاهداني توقفا عن الكلام وراحا يتابعاني بنظراتهم، سمعت أحدهم يقول بصوت منخفض"أترى الوفاء؟ لم يرض العودة إلى المنزل قبل أن يمر على المقابر ليقرأ الفاتحة!"

كلماته طمأنتني قليلا لكني ما زلت أمشي ببطئ مترددا في الدخول فوجدته يقول فجأة "أي خدمة يا سي الأستاذ؟"

وقفت مكاني وبابتسامة مصطنعة حاولت رسمها جاهدا أجبته "بارك الله فيك، هناك قريب لي توفي ولم أكن موجودا في القرية حينها، وسأذهب لزيارته وقراءة الفاتحة قبل عودتي إلى المنزل"،تحولت نظراتهما لي للاحترام والتقدير أكثر وتمتم الثاني "أصيل".

ويبدو أن الشخص الأول ثرثار، فسألني"المرحوم من أي عائلة؟"

وقبل أن يتملكني التوتر أو الخوف أسرعت قائلا "الحاج أحمد محمد، ألا تعرفه؟"

يقال أن خير وسيلة للهرب من السؤال هو الرد عليه بسؤاله بسؤال آخر، كانت إجابتي جاهزة لأني توقعت هذا السؤال من قبل.

قلتها و أنا أتمنى أن يكون فعلا هناك شخص مات منذ فترة قريبة يدعى أحمد محمد فهذا الاسم شائع والعشرات في البلدان يمتلكون منه المئات، ظهرت علامات البلاهة على وجهه وهو يحاول التذكر مردد بصوت مسموع "الحاج أحمد محمد، الحاج أحمد محمد" هنا تدخل الشخص الثاني ونكزه بكوعه وهو يقول "طبعا طبعا الحاج أحمد محمد، ألا تتذكره؟" كان واضحا عليه هو الآخر أنه لا يعرف الحاج الميت لكنه فعل ذلك ليخلصني من فضول صاحبه، ثم نظر لي وقال "البقاء لله يا أستاذ"

"سبحان من له الدوام" قلتها و أنا أتحرك متجها لباب المقابر وحمدت الله أن الموقف مر بسلام، أثنيت على نفسي لثباتها وقوتها بعد كل ما مرت به، وحمدت الله مرة ثانية لعدم وجود آخرين يرمقوني بنظراتهم أو يزعجوني بأسئلتهم.

وقفت لمدة ثواني أمام بوابة المقابر، بوابة حديدية ضخمة مطلية باللون الأخضر لكن عفى عنه الزمن، مزينة بالصدأ هنا وهناك على أطرافها، دخلت مسرعا و أنا أقول السلام عليكم دار قوم مؤمنين، أنتم السابقون ونحن اللاحقون.

مقابر القرى غير منظّمة كمقابر المدن، واحدة ملقاة هنا وأخرى ملقاة هناك، بعض المقابر بينها ممر صغير، والبعض الآخر بينها ممر بالكاد يكفي الوقوف، مقابر

بنيت بالطين وأخرى بنيت بالإسمنت، فروقات شتّى، دخلت وسط المقابر مبتعدا عن بوابتها واختفيت.

رحت أمشي هنا وهناك والتراب منتشر في كل مكان، تراب ناعم، لا أعرف هل هو تراب حقا أم رفات الموتى؟ لماذا التراب في المقابر ناعم جدا؟

فجأة حاولت تذكر اسم المقابر الخاصة بعائلة سمير، حاولت وحاولت دون جدوى، أنا أتذكر أنه قالي لي مقابر الشيخ صالح، لكن هل أخبرني باسم العائلة؟

يبدو أن ما يحدث لي الآن بسبب الإرهاق، وحين احترت في أمري أخرجت الهاتف وقررت البحث في دردشة الفتاة لعلي أتذكر الاسم، فتحت التطبيق وبحثت وسط الرسائل، لكن مهلا، هناك شئ غريب يحدث، رسائل الفتاة لم يكن لها أي وجود، كل الرسائل التي بيني وبين أصدقائي و أقاربي وكل من أعرفهم وحادثتهم قبل وبعد محادثة الفتاة موجودة، أما رسائل الفتاة فلا. هل حظرتني؟ لكن لو فعلت ذلك لعرفت طبعا، لظهر لي اسمها على الأقل، بحثت وبحثت دون أن أصل لشئ.

موقف سخيف مزعج لم أعرف كيف أتصرف خلاله، ظللت واقفا غير مصدق ما يحدث شاعرا بالحيرة، وأخيرا اهتديت لفكرة أن أدفنه في أي قبر من القبور التي أمامي، يجب أن أتخلص من الجثة التي في حقيبتي، يجب أن أخلص نفسي من كل ما مرت به.

اخترت قبر بعيد منزوي عن أعين الناس، جلست فوقه ومددت يدي لأفتح الشنطة وأخرج المجرفة، لكني صعقت، تذكرت أني لم أضعها في الحقيبة مرة أخرى حين كنت في الشقة، يبدو أن سرعتي واستعجالي أنسياني إياها.

مقابر القرى عادة ما تكون جماعية، مدخلها على سطح الأرض ثم تنزل درجتين أو ثلاث تحت الأرض لتضع الجثمان، جلست على ركبتاي ورحت أحفر بيدي بسرعة كي لا يسرقني الوقت، ذرات التراب الناعمة كانت سهلة جدا في الحفر، مروقت ليس بالكثير حتى وصلت إلى مدخل المقبرة من الأسفل، باب صغير مبني بالطوب اللبن ومغطى بالجص، أزلت الطبقة الجصية بيدي مسرعا وبعدها واحدة من الطوب اللبن وتفاجئت حينها بأنتن رائحة كريهة شممتها في حياتي، عدت للخلف و أنا أسعل بشدة وأحاول التقاط أنفاسي بعيدا عن مدخل المقبرة في الهواء الطلق، ثم عدت وأزلت بعض الطوب و أنا أضع يدي على فمي ثم خرجت من مكاني منتظرا بعض الوقت حتى تكون الرائحة النتنة قد خرجت.

طبعا وجهي ويداي عليهما طبقة من الطين، ذلك بسبب امتزاج العرق بذرات التراب، كان منظري بائسا، وبعد أن جلست قليلا بجوار المقبرة وشعرت أن الأوان قد آن لإنهاء كل شئ أخرجت منديلا ووضعته على أنفي ونزلت، الرائحة موجودة لكن ليس بقوة المرة الأولى، أخرجت هاتفي وسلطت إضاءته نحو الموتى، أكوام من الأتربة هنا وهناك، قماش أبيض نصفه تحت الأرض ونصفه فوق الأرض، منظر مهيب، كيف للحفار أن يشاهد هذا المنظر كثيرا، يكفي الإنسان رؤيته مرة واحدة فقط وهي أثناء الدفن.

فتحت الشنطة لأخرج رفات سمير منها إلى مثواها الأخير، الآن سترتاح روحه إلى الأبد، الآن سينام بجوار والدته التي ترقد في أي مقبرة من المقابر المحيطة هنا، قرّبت عليهما المسافات ويمكنهما الخروج لليلا للاطمئنان على بعضهما البعض، الآن انتهت مهمتي، فتحت الحقيبة وزفرات الارتياح تخرج مني كسيمفونية عذبة، لكن مهلا، أين الجثة؟ الجثة غير موجودة في الحقيبة، أين ذهبت؟ لقد وضعتها

هنا بيداي، لم أجد غير ملاءة بيضاء متسخة وبعض الأتربة، مهلا ما الذي يحدث؟ درت حول نفسي كالمجنون غير مصدق، فالحقيبة كانت بجواري طوال الطريق في السيارة لم أغفل عنها لحظة، وهل يغفل الخائف؟

اختفت الجثة ولا أثر لها.

ما الذي يحدث معي؟

خرجت من القبر وتركت الحقيبة داخله و أنا أشعر بالدوار، هل جننت؟ أم أصابتني صدمة عصبية أو نفسية بعدما حدث معي في تلك الشقة المشؤومة، ما الذي يحدث؟ قلت الجملة الأخيرة غاضبا بصوت مسموع غاضب والحمد لي أني كنت بمفردي وقتها.

شعرت بالعطش، تركت المقبرة مفتوحة، وتمشّيت بحثا عن زير مياه هنا أو هناك، بالتأكيد سأجد واحدا، وجدته أخيرا تحت شجرة توت عتيقة، شربت وغسلت وجهي ويداي وحاولت جاهدا إزالة كل ما لصق بي من أتربة وجلست بجوار الزير أحاول تحليل كل ما حدث معي منذ البداية إلى الآن، عقلي لم يهتدي إلا لتحليل واحد، وهو أن كل ما حدث معي ما هو إلا مزحة ثقيلة منهم.

بالتأكيد هذه العمارة مهجورة أو ربما ليس لها وجود من الأساس وربما كل رحلتي هذه كانت في صحراء من الصحاري، ما الذي أُقوله؟ أنا لم أصل إلى هذا الحد من الجنون بعد.

وددت أن اتأكد من كل شيء، لم يكن بالطبع استطاعتي العودة من جديد والتأكد بنفسي، لن أفعل ذلك مهما حدث ولن أعود أبدا رحت أفكر فيما سأفعل، أخرجت هاتفي و اتصلت بابن خالي، هو يسكن في نفس المحافظة التي

ذهبت إليها، وكان معي طوال الرحلة، كان في عقلي، كنت خائفا أن ألتقيه في هذه الليلة مصادفة والفتاة معي، وكأني ذاهب إلى موعد غرامي، وما الضرر إن رآني مع فتاة في موعد غرامي؟ لا يهم.

اتصلت به فلم يجب، كررت الاتصال عدة مرات، يبدو أنه كان نائما، لم أهدأ حتى رد على اتصالي، كان نائما جدا لكن ما شرحته له أيقظه من نومه، ظهر هذا واضحا جليا في نبرته التي تغيرت.

قصصت عليه كل شيء، وطلبت منه أن يذهب للعنوان الذي أخبرته به، وأن يتأكد من المكان هناك، وإن كنت أنا مجنونا فهو بالتأكيد عاقل، و افقني على اقتراحي وطلب مني أن أعود الآن وأستريح مما مررت به، ووعدني في المساء سيخبرني بما وصل إليه.

رجعت إلى منزلي بعد عدد لا بأس به من المواصلات من بلد إلى بلد، ومن حسن حظي أن والدتي كانت في المطبخ تعد طعام الغداء، دخلت غرفتي مسرعا كي لا تراني بهذه الحال الرثة وتجري معا تحقيقا سين وجيم، لم أفكر في الأجوبة، كل تفكيري فيما حدث معي، خلعت ملابسي وذهبت إلى الحمام كاللص كي لا تراني.

سمعتها في الخارج تقول بنبرة ساخرة "أين كنت من الأمس حتى الآن يا معالي البك؟"

رددت مستغربا "من الأمس؟ لقد عدت من المنزل متأخرا وخرجت باكرا، منذ متى و أنا أبات خارج المنزل؟"

تمتمت ببعض الكلمات، لم أهتم بها، كنت مستمتعا بالماء الدافئ، كان يغسلني ويغسل معي كل الأفكار التي تشغلني.

خرجت من الحمام متجها لغرفتي، ألقيت نفسي فوق سريري وبعد أقل من دقيقة كنت آكل الأرز مع الملائكة.

كوابيس مزعجة انتشلتني منها رنة هاتفي، كان ابن خالي على الطرف الآخر، سألته مسرعا ماذا وجدت؟

قال لي وأصوات السيارات والمارة من حوله "العمارة التي وصفتها لي أمامي مباشرة، دخلت المحلات القريبة منها بحجة أني أبحث عن عنوان صديقي وأظن أنه يسكن هذه العمارة، لكن الكل أكد لي خطأي، قالوا أن هذه العمارة لم تسكن منذ فترة كبيرة، منهم من قال لي ذلك بكلمات مقتضبة منهيا الحوار ومنهم من كان ثرثارا بعدما أعطيته سيجارة، فعرفت أنها مهجورة منذ مدة بعيدة لحوادث قديمة كانت تحدث فيها، وقديما كان الساكن لا يكمل فيها الأسبوع ويتركها حالفا ألا يعود إليها مرة أخرى".

تمت بحمد الله.

أعمال أخرى للكاتب:

- داخل مقبرة الفرعون

- قصتي معهم

للتواصل:

https://www.facebook.com/Gamal.Hefney

"صعيد مصر مليء بالعجائب،

وهذه إحدى عجائبه."